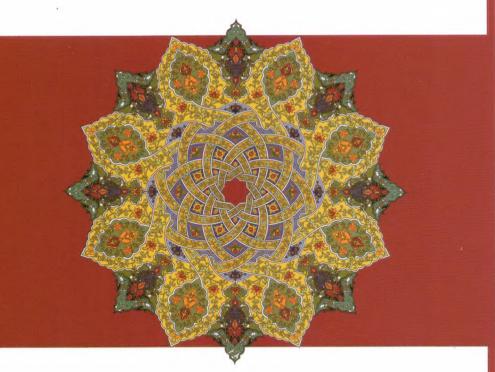
الأغمال الكامِلة

خالينا بي المالية المحارف





أَجُهُمُدالكَبُسُوني



الدكتور أحمد الريسوني

• ولد أحمد بن عبد السلام بن محمد الريسوني بقرية أولاد سلطان بإقليم العرائش، بشمال الغرب سنة 1953م وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بمدينة القصر الكبير، وحصل فيها على شهادة الباكلوريافي الأداب العصرية. التحق لسنة واحدة بكل من كلية الحقوق (شعبة العلوم القانونية)، ثم لسنة أخرى بكلية الأداب والعلوم الإنسانية (شعبة الفلسفة).

التحق بكلية الشريعة بجامعة القرويين بفاس، وحصل منها على الإجازة العليا سنة 1978م.

أتم دراساته العليا بكليت الآداب والعلوم الإنسانيت (جامعة محمد الخامس) بالرياط، فحصل منها على: ♦شهادة الدراسات الجامعية العليا سنة 1986م.

♦دبلوم الدراسات العليا (ماجستير) في مقاصد الشريعة سنة 1989م. *دكتوراه الدولة في أصول الفقه سنة 1992م.

الأعمال المنيت:

•عمل محررا قضائيا بوزارة العدل (1973 . 1978) . عين رئيسا للقسم الإداري بالمحكمة الابتدائية بمدينة سوق أربعاء الغرب (1977/1976)، ثم استقال منه. وعمل أستاذا بالتعليم الثانوي الأصيل بثانوية الإمام مالك بمكناس (1984.1978)

•عمل أستاذا لعلم أصول الفقه ومقاصد الشريعة يكلية الأداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس، وبدار الحديث الحسنية. بالرباط ، (1986 إلى سنة 2006) •عمل بصضة خبير أول ثدى مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة،

منذ 2006 (مشروع معلمة زايد القواعد الفقهية والأصولية) عين نائبا لمدير المشروع ... ثم مديرا له إلى نهايته سنة 2012. • عمل أستاذا زائرا بجامعة زايد بالإمارات العربية،

وبجامعة حمد بن خليفة بقطر. . حاليا: مدير (مركز المقاصد للدراسات والبحوث) بالرباط.

الأنشطة العامة:

•عضو مؤسس للاتحاد العالى لعلماء السلمين، وعضو بمجلس أمنائه. • انتخب أول رئيس رابطة علماء أهل السنة.

مستشار أكاديمي لدى المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عضو هیئت التحریر بمجلت(إسلامیت المعرفت). عضو برابطة علماء المغرب سابقا.

• مؤسس وأول رئيس للجمعية الإسلامية بالمغرب. مؤسس وأول أمين عام لجمعية خريجي الدراسات الإسلامية العليا بالمغرب.

ورئيس لرابطة المستقبل الإسلامي بالمغرب (1994-1996) • رئيس لحركة التوحيد والإصلاح بالمغرب (1996-2003) المدير المسؤول لجريدة "التجديد" اليومية (2000-2004) •شارك في تأسيس وتسيير عدد من الجمعيات العلمية والثقافية. •أعد وقدم عددا من البرامج والحلقات التلفزيونيت.



• العمل العلمي الحامد :

وتدريس أصول الفقه ومقاصد الشريعة منذ سنة 1986. الإشراف على أزيد من مائة أطروحة دكتوراه ورسالة ماجستيرية مختلف الجامعات المغربية وعضو مجلس الأمناء والمجلس العلمي لجامعة مكة الكرمة الفتوحة والإشراف على العديد من الدورات العلمية المنهجية للباحثين في العلوم الشرعيت

المؤلفات المنشورة:

ونظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (ترجم إلى الفارسية، والأردية، والإنجليزيت والبوسنيت).

ونظرية التقريب والتغليب وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية ممن أعلام الفكر المقاصدي. · مقاصد المقاصد • مدخل إلى مقاصد الشريعة. • مقالات في الحرية. والفكر المقاصدي قواعده وفوائده. والأمم هي الأصل. ·الاجتهاد: النص والمصلحة والواقع. · حكم الأغلبية. الشورى في معركة البناء. •أبحاث في الميدان. • التعدد التنظيمي للحركة الإسلامية ما له وما عليه. •ما قل ودل، ومضات ونبضات (مجموعة مقالات). الوقف الإسلامي، مجالاته وأبعاده (نشرته منظمة الإيسيسكو وترجم إلى الإنجليزية والفرنسية).

•علال الفاسي عالما ومفكرا.

•الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية (ترجم إلى الفرنسية). محاضرات في مقاصد الشريعة.

والفكر الإسلامي وقضايانا السياسية المعاصرة.

•مراجعات ومدافعات (مجموعة مقالات). والحرمة الإسلامية المغربية صعود أم أفول

النظر القاصدي في حكم تولي بعض الولايات العامة والمناصب المهمة.

• فقه الثورة مراجعات في الفقه السياسي الإسلامي . • فقه الاحتجاج والتغيير.

•القواعد الأساس لعلم مقاصد الشريعة.

• التجديد والتجويد، تجديد الدين وتجويد التدين.

• دراسات في الأخلاق.

• الذريعة الي مقاصد الشريعة...

• الجمع و التصنيف لمقاصد الشرع الحنيف

· وله بحوث كثيرة منشورة في المجلات العلمية، وضمن أعمال الندوات والمؤتمرات، ومقالات في الصحف والمواقع الإلكترونيت





فَالْمُلْكِ الْمُرْثُ لِلْمُصْرِوَالْتُورْعُ مصر القاهرة-المنصورة حال [

-- : - 1-117-5005 & -- 5-1-44- V£40 : -E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com **®**♥ daralkalema.com

خَالِنَا فِي إِلَى إِلَى إِلَى اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ

جميع الحقوق محفوظة للناشر جميع الحقوق محفوظة للناشر الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ. ٢٠١٦م بطاقة الفهرسة

الريسوني ، أحمد

دراسات في الأخلاق/ أحمد الريسوني

ط١. - المنصورة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م

۹۲ ص ، ۲۶ سم

رقم الإيداع: ٨٥٥٨/ ٢٠١٦

تدمك: ٦ - ٥٤٥ - ٢١١ - ٧٧٩ - ٨٧٩

المان المنافق المنافقة المنافق

E-mail:mmaggour@hotmail.com E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com www.facebook.com/DarAlkalema

خالينان في المراق

أَجُهُ مَدالرَّبُهُ وِني

ڴٳڟٳڿڲڶڋؽ ڵێڞ۬ؠٷٳڷۊۯڹۼ



معنى الخُـلُق والأخلاق

معنى الخُـلُق والأخلاق

الخُلُق (بضمتين) جمعه أخلاق، ويقال أيضا: الخُلْق (بتسكين اللام)، وهو يتعلق بالصفات المعنوية للإنسان، يقابله الخَلْق (بفتح اللام وسكون الخاء)، وهو يتعلق بالصفات المادية الحسية التي يخلق بها الإنسان.

قال الراغب الأصفهاني: «خُصَّ الخَلْق بالهيثات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخُصَّ الخُلُق بالقُوَى والسجايا المدركة بالبدن» (١).

فالأخلاق هي: الصفات والسجايا النفسية المعنوية، التي تظهر، أو يظهر أثرها، من خلال السلوك العملي المستمر. فلا بد في الأخلاق من تحقق هذه العناصر الثلاثة: العنصر النفسي الباطني، والعنصر السلوكي العملي، وعنصر الانتظام والاعتياد.

فالعنصر النفسي يتضمن التحلي الباطني بالصفة الخُلقية والرضى بها.

والعنصر العملي، هو التعبير الفعلي عما تكنه النفس من تعلق وميل ورغبة في هذا الخلق أو ذاك.

وعنصر الاستمرار والاعتياد هو المعبر عن كون السلوك قد أصبح خلقا وسجية، وليس مجرد فلتة أو تصرف عابر.

فبدون رضى وتعلق نفسي، تكون الأخلاق مجرد تظاهر ونفاق وتصنع. وبدون الأثر العملي السلوكي، تبقى الأخلاق مجرد تمنيات أو شعارات أو دعاوى. وبدون تكرار واستمرار، يكون السلوك عرضيا عابرا، لا يشكل صفة ثابتة لدى صاحبه، فلا يعد خلقا له.

⁽١) المفردات ١/ ٢١٠.

والأخلاق إما حسنة نافعة محمودة، وإما سيئة ضارة مذمومة. ومصطلح (الأخلاق) يشمل حَسنها وقبيحها معًا. إلا أنه إذا أطلق بلا وصف ولا تقييد، فغالبا ما يراد به الأخلاق الحميدة والمطلوبة. فهذا هو المراد عادة إذا جرى الحديث عن الأخلاق، أو عن دور الأخلاق، أو أهمية الأخلاق، أو إذا قيل عن شخص ما بأنه ذو أخلاق، أو صاحب خلق. قال ابن عاشور: «الخلق: السجية المتمكنة في النفس باعثة على عمل يناسبها من خير أو شر، وتشمل طبائع الخير وطبائع الشر. ولذلك لا يعرف أحد النوعين من اللفظ إلا بقيد يُضم إليه، فيقال: خُلُق حسن، وفي ضده خلق قبيح. فإذا أطلق عن التقييد انصرف إلى الخلق الحسن (١)

منابع الأخلاق والتخلق : المرابعة

وللأخلاق مصادر ثلاثة تنبع منها وتتغذى بها، ويكمل بعضها بعضا، وهي: أولها: الفطرة:

فالإنسان مجبول ومفطور على حب الأخلاق الحسنة وكره الأخلاق السيئة. ومها اختلف الناس - أفرادا أو أمما - في تقييم بعض الأفعال وبعض التصرفات، فإن هناك فضائل وأخلاقا يشتركون جميعا في حبها واحترامها كالصدق والأمانة والوفاء والإحسان والتواضع والعدل...

وهناك رذائل وأخلاق سيئة يشترك الناس جميعا في كراهيتها واستهجانها، كالظلم والعدوان والكبر والكذب والخيانة والأثرة والغدر... فاشتراك الناس - بمختلف أجناسهم وأديانهم وأوطانهم وعصورهم وطبقاتهم وأحوالهم - في هذه الميول الخلقية، وتجذّرها في نفوسهم وسلوكهم، دليل واضح على فطريتها وأصالتها فيهم. فللإنسان حاسة خلقية تعمل مثل حواسه الأخرى. بل إن هذه الحاسة

⁽١) التحرير والتنوير ١٩/ ١٧٦ - نشر دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس ١٩٩٧.

الخلقية تعتبر من الحواس المميزة للإنسان. ولذلك وُصف الإنسان بأنه كائن أخلاقي، أو حيوان أخلاقي.

ثانيها: الدين:

فمن المعلوم أن الأخلاق والتوجيهات الخلقية، هي الجزء الأعظم من جميع الأديان وتعاليمها.

وفي جميع العصور وجميع الأمم، نجد الأخلاق قرينة الدين والتدين، ونجد الدين والتراث الديني، يشكلان - دائما - أكبر مدد وأقوى سند للقيم الخلقية، وللمعايير الخلقية، وللمارسات الخلقية. فأهل الأخلاق، ودُعاة الأخلاق، وحُماة الأخلاق، هم عادة الأنبياء وأتباع الأنبياء.

وإذا كانت الجِبِلّة هي منبع الأخلاق المفطورة، فإن الدين هو مصدر الأخلاق المسطورة. فلا نعرف خُلقا حسنا يتمسك الناس به أو يذكرونه ويتطلعون إليه، إلا وهو منصوص عليه في الدين وفي التراث الديني.

ثالثها: العرف الاجتماعي:

في كل مجتمع، تتشكل عبر العصور أعراف وقيم، تكون محل تراض وتوافق عام، وحلَّ احترام والتزام، وتصبح جزءا من المنظومة الأخلاقية للمجتمع، ويصبح انتهاكها والاستخفاف بها سلوكا معيبا وربها معاقبا عليه. كها أن التمسك بها يكون خُلُقا محمودا ومقدرا. وهذه الأخلاق العُرفية والعادات الكريمة، يكون لها - في الأساس - استمدادٌ من المصدرين السابقين وتأثر بهها، ولكنها تستمد صيغَها العملية وتعبيراتها الظرفية، من الفكر والثقافة والتجربة البشرية. فهي - من هذه الناحية - تجسد الخصوصية الأخلاقية للأمم والشعوب، وللعهود والأحقاب التاريخية. ولذلك نجدها أكثر قابلية للاختلاف والتهايز بين الأمم، وأكثر خضوعا للتغير عبر العصور، ولو بتدرج بطيء في الغالب.

ويُرجِع الماوردي تشَكُّل الأخلاق وانبثاقها إلى أصلين هما الطبع والتطبع؛ فالأخلاق «بعضها خُلق مطبوع» وبعضها خلق مصنوع؛ لأن الخلق طبع وغريزة، والتخلق تطبع وتكلف... فتصير الأخلاق نوعين: غريزية طبع عليها، ومكتسبة تَطبَّع بها» (١).

على أن الأخلاق بنوعيها لا تستغني عن الرعاية والصيانة والتوجيه. «قال بعض الحكماء: ليس شيء عولج إلا نفع وإن كان ضارا، ولا شيء أهمل إلا ضر وإن كان نافعا»(٢).

مكانة الأخلاق في الإسلام:

المكانة العظمي للأخلاق في الإسلام، تعد من أظهر معالمه وأبرز خصائصه.

فهي - أولا - ذات مكانة أساسية، بمعنى أن الأخلاق هي من جملة الأسس الأولى والمقاصد العليا، التي بني عليها الإسلام وشريعته.

وهي - ثانيا - تحتل مساحة شاسعة مِن مَصْدرَي الإسلام: القرآن والسنة. فحين نصنَّفُ الآيات والأحاديث حسب موضوعاتها، سنجد للموضوعات الأخلاقية نصيبا وافرا، إن لم يكن النصيب الأوفر.

وهي - ثالثا - ذات حضور وتأثير بليغين في كافة الجوانب الأخرى من الدين عقيدة وشريعة. فحتى الآيات والأحاديث المتعلقة بالعقائد أو بالأحكام أو بالقصص، نجدها مشبعة بالمعاني والتوجيهات الخلقية...

ومن أجود ما قيل في تفسير حسن الخلق، ما نقله البيهقي في الباب السابع والخمسين من (شعب الإيان)، عن الإمام أحمد أنه قال: «ومعنى حسن الخلق:

⁽١) تسهيل النظر وتعجيل الظفر ص٤ - نشر دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨١.

⁽٢) المرجع السابق نفسه.

سلامة النفس نحو الأرفق الأحمد من الأفعال.

وقد يكون ذلك في ذات الله تعالى، وقد يكون فيها بين الناس.

وهو في ذات الله ﷺ: أن يكون العبد منشرح الصدر بأوامر الله ونواهيه، يفعل ما فرض عليه، طيب النفس به، سلسا نحوه، وينتهي عما حرم عليه، واسعا به، غير متضجر منه، ويرغب في نوافل الخير، ويترك كثيرا من المباح لوجه الله تعالى، إذا رأى أن تركه أقرب إلى العبودية من فعله، متبشرا لذلك غير ضجِر منه، ولا متعسر به.

وهو في المعاملات بين الناس: أن يكون سمحا بحقوقه لا يطالب غيره بها، ويوفي ما يجب لغيره عليه منها، فإن مرض فلم يُعَدْ، أو قَدِم من سفر فلم يُزر، أو سَلّم فلم يُردّ عليه، أو ضاف فلم يكْرَم، أو شَفع فلم يحبّب، أو أحسن فلم يُشكر، أو دخل على قوم فلم يُمكّن، أو تكلم فلم ينصّت له، أو استأذن على صديق فلم يؤذن له، أو خطب فلم يزوّج، أو استمهل الدين فلم يمهل، أو استنقص منه فلم يُنقص، وما أشبه ذلك، لم يغضب، ولم يعاقب، ولم يتنكر من حاله حال، ولم يستشعر في نفسه أنه قد جُفي وأُوحِش، وأنه لا يقابِل كل ذلك إذا وجد السبيل إليه بمثله، بل يضمر أنه لا يعتد بثيء من ذلك، ويقابل كلّ منه بها هو أحسن وأفضل وأقرب بل يضمر أنه لا يعتد بثيء من ذلك، ويقابل كلّ منه بها هو أحسن وأفضل وأقرب

ثم يكون في إيفاء ما يكون عليه، كَهُو في حفظ ما يكون له، فإذا مرض أخوه المسلم عاده، وإن جاءه في شفاعة شفّعه، وإن استمهله في قضاء دين أمهله، وإن احتاج منه إلى معونة أعانه، وإن استسمحه في بيع سمح له، ولا ينظر إلى أن الذي يعامله كيف كانت معاملته إياه فيها خلا، أو كيف يعامل الناس، إنها يتخذ الأحسن إماما لنفسه، فينحو نحوه ولا يخالفه.

والخلق الحسن قد يكون غريزة، وقد يكون مكتسبا، وإنها يصح اكتسابه ممن كان

في غريزته أصل منه، فهو يضم بها اكتسبه إليه ما يتممه. ومعلوم في العادات أن ذا الرأي المحالسته أُولي الأحلام والنَّهَى - يزداد رأيا، وأن العالم يزداد بمخالطة العلماء علما، وكذلك الصالح والعاقل بمجالسة الصلحاء والعقلاء، فلا ينكر أن يكون ذو الخلق الجميل يزداد حُسنَ خلق بمجالسة أولي الأخلاق الحسنة، وبالله التوفيق».

الأخلاق والتشريعات:

الأخلاق في الإسلام لا يقف مدلولها ومفعولها عند السلوك الفردي وعند التعامل الاجتهاعي المحدود، كها هو مدلول عبارة (حسن الخلق) المبيَّنُ آنفا، فحُسن الخلق - بهذا المعنى المتقدم - إنها هو جزء من مدلول الأخلاق ومفعولها. فالأخلاق في الإسلام ليست منحصرة في أبواب الآداب وحسن السلوك، وإنها هي سارية في جميع الأبواب وجميع الأحكام وجميع التكاليف الشرعية، من العقائد والعبادات والعادات والعقود والمعاملات والجنايات والعقوبات والسياسات... فكل ذلك مطبوع بطابع الأخلاق ومؤسس عليها ومحكوم بها.

ويوضح العلامة محمد الأمين الشنقيطي جوانب من ذلك بقوله: «والمتأمل للقرآن في هديه، يجد مبدأ الأخلاق في كل تشريع فيه، حتى العبادات:

- ففي الصلاة خشوع وخضوع، وسكينة ووقار، فأتُوها وعليكم السكينة والوقار.
- وفي الزكاة مروءة وكرم: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ مَامَنُواْ لَاثْبَطِلُواْصَدَقَاتِكُم بِٱلْمَنِ وَٱلْآذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقوله: ﴿ إِنَّمَانُظُومُكُولُوجُهِ اللَّهِ لَا زُيدُ مِنكُو بَرْآةُ وَلَاشكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].
- وفي الصيام: «من لم يدَعْ قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»، وقوله علي «الصوعجُنة».
 - وفي الحج: ﴿فَلَا رَفَتَوَلَافُسُوقَ وَلَاجِـدَالَ فِي ٱلْحَيِّجُ ﴾ [البقرة:١٩٧]..
- وفي الاجتهاعيات: خوطب ﷺ بأعلى درجات الأخلاق، حتى ولولم يكن

داخلا تحت الخطاب، لأنه ليس خارجا عن نطاق الطلب : ﴿ هُ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلّا يَمَّدُوا إِلّا إِيّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ثم يأتي بعدها: ﴿ وَبِالْوَلِدَيْنِ إِحْسَنَا إِمَّا يَبَلّغَنّ عِندَكَ الْسَكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاَهُما فَلا تَقُل لَمُّما أَنْ وَلا نَنْهُرهُما وَقُل لَهُما فَوْلا كَالْهُما فَوْلا كَالْهُما فَولا لَهُما فَولا كَالله عَلَى الله عَيريما ﴾ [الإسراء: ٢٤]، مع أن والديه لم يكن أحدهما موجودًا عند نزولها، إلى غير ذلك من التعاليم العامة والخاصة التي اشتمل عليها القرآن.

وقد عني ﷺ بالأخلاق، حتى كان يوصي بها المبعوثين في كل مكان، كها أوصى معاذ بن جبل ﷺ بقوله: «اتق الله حيثها كنت، وأثبع السيئة الحسنة تَمَحُها، وخالق الناس بخلق حسن».

وقال على الله الناس من كلام النبوة: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، أي إن الحياء، وهو من أخص الأخلاق، سياج من الرذائل، وهذا مما يؤكد أن الخلق الحسن يحمل على الفضائل ويمنع من الرذائل.

وقد أشار القرآن إلى هذا الجانب في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَالْكَ عَظِمِينَ ٱلْفَـيْظُ وَالْمَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[آل عمران: ١٣٤]

وإن من أهم قضايا الأخلاق بيانه ﷺ بقوله: «إنها بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، مع أن بعثته بالتوحيد والعبادات والمعاملات وغير ذلك، مما يجعل الأخلاق هي البعثة.

ومما يؤكد كون الأخلاق هي الأسس والقواعد الأولى للتشريع الإسلامي، ما ثبت من أن أوائل الأوامر والنواهي التي أنزلت وتلقاها الصحابة عن رسول الله على مع توحيد الله وعبادته، إنها كانت أوامر ونواهي خلقية. ففي الحوار المعروف الذي جرى بين هرقل و أبي سفيان حول بعثة النبي على قال هرقل: ماذا يأمركم؟ قال أبو

سفيان : «يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصدق، والعفاف، والصلة...».

وفي حديث أم سلمة الطويل حول لقاء المسلمين المهاجرين بنجاشي الحبشة، قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: «وأُمَرَنا - أي رسول الله عَلَيْ - بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصِلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قال: فعدد عليه أمور الإسلام... »(١).

وهكذا يبدو جليا أن شريعة الإسلام أُسُسها أخلاق ومقاصدها أخلاق. فلذلك لا نعدو الحقيقة إذا وصفناها بأنها «شريعة الأخلاق»، وإذا قلنا: إن كل تشريع يُستمد ويُستنبط منها ومن أصولها، يجب أن يكون مبنيا على هذه الصفة ومراعيا لها.

التكامل بين الوظيفتين الخلقية والتشريعية:

وظيفة الأخلاق في علاقتها بالتشريع، لا تقف عند كونها مصدرا ومعيارا وهدفا للتشريعات والأحكام القانونية والقضائية، بل هي ذات وظيفة عملية متلاحمة ومتكاملة مع وظيفة التشريع والقضاء. وفي كثير من الحالات، تشكل الأخلاق البديل الأرقى الأمثل عن القوانين والأحكام القضائية والتدابير السلطانية. فحيثها سادت مكارم الأخلاق وقوي تأثيرها، قَلَّت الخصومات والمنازعات، وقلت الانحرافات والجنايات. وحتى ما ينفلت ويقع منها تتأتى معالجته وتجاوزه بيسر، ودونها حاجة إلى شَغل الولاة والقضاة والشُّرَطِ به. وحتى في

⁽١) أضواء البيان ٨/ ٢٤٩-٢٥٠. دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

حال الاحتكام إلى التشريعات والمحاكم، فإن الفرق يكون كبيرًا بين التقاضي المصحوب بالأخلاق الحميدة، أو ببعض منها، والتقاضي المتجرد منها، فضلا عن التقاضي المتسلح بمساوئها ورذائلها، كالحقد والمكر والتزوير وسوء الظن والإفراط في العداوة والانتقام... ولذلك كان من علامات المنافق، أنه «إذا خاصم فجر»، كما جاء في الحديث المتفق عليه عَنْ النبي عَنْ قَالَ: «أربع من كنَّ فيه كان منافقا أو كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». ومعنى هذا أن المؤمن صاحب الخلق، حتى إذا تنازع أو تخاصم، ظل معتدلا ومؤدبا في خصومته.

وفي الحديث الآخر – عند الإمام البخاري – قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلا سمحا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى» وفي رواية: «إن الله يحب سمح البيع سمح الشراء سمح القضاء». وفي رواية أخرى: «أفضل المؤمنين رجل سمّحُ البيع، سمح الشراء، سمح القضاء، سمح الاقتضاء».

وفي مسند الإمام أحمد عن أنس ﴿ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطى من منعك، وتصفح عمن شتمك».

وعن أنس أيضا قال: ما رأيت النبي ﷺ رُفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو.

وفي سنن ابن ماجة، عن عبد الله بن عمر على قال: قال رسول الله على: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه».

فمتى تعامل الناس بمثل هذه الأخلاق، قلَّتُ حاجتهم إلى الولاة والقضاة والمفتين والمتشرعين، وربحوا طمأنينتهم وسعادتهم وأخوتهم، ووفروا أموالهم وأوقاتهم وصراعاتهم، واستراحوا وأراحوا غيرهم.

مصادر الالتزام والإلزام الخلقي:

المصادر الداعية إلى حفظ الأخلاق واحترامها، والباعثة على الالتزام بها، متعددة ومتنوعة. وهذا يتناسب مع ما لها من مكانة وأهمية، فحتى إذا تعطل وفُقِد بعض البواعث والمصادر، اشتغلت بواعث ومصادر أخرى.

وعموما، يمكن التمييز بين أربعة مصادر: اثنان يصدر عنهما الالتزام الذاتي الطوعي، واثنان يصدر عنهما الإلزام الخارجي.

- الالتزام الذاتي:

وهو الذي ينشئ التحلي الطوعي والتعلق الإرادي بالأخلاق، بحكم الأصالة الفطرية الماثلة إلى حب الخير والإحسان ومكارم الأخلاق، وكراهية الشر والقبح والرذالة. فحب محاسن الأخلاق وكراهية مساوئها، هو شيء فطري متأصل في النفس الإنسانية. قال ابن القيم: «فإن الله سبحانه فطر عباده على استحسان الصدق والعدل والعفة والإحسان ومقابلة النعم بالشكر، وفطرهم على استقباح أضدادها»(۱).

فبفضل هذا المصدر يصبح الالتزام بالخلق نزوعا ذاتيا داخليا، تحبه النفس وتطمئن به وترتاح إليه. وهذا هو أكثر ما ينطبق عليه قول مسكويه، في تعريفه للخلق بأنه: «حالٌ للنفس داعية لها إلى أفعالها، من غير فكر ولا روية»(٢).

- الالتزام الديني:

وهو أيضا ينشئ التزاما إراديا طوعيا بالأخلاق. ولكن هذا الالتزام ينبع من الإيهان بالله ومحبته، والإيهان بالخيرية والصلاحية لكل ما يأتينا منه سبحانه. ويتعزز

⁽١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٤٥ - نشر دار الكتاب العربي بيروت - الطبعة الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

⁽٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص٣٠.

هذا الإيهان وهذا الالتزام بالإدراك والمعاينة لما للأخلاق من آثار ونتائج طيبة ملموسة. وهذا المصدر يتكامل مع المصدر الأول فيغذيه ويقويه، ويرتقي بالإنسان مرتقى أعلى وأسمى. وقد يأتيه بها لا تميل إليه نفسه ولا يهواه طبعه، من معالي الأخلاق ومكارمها، ولكنه مع ذلك يلتزم به عن طواعية وإيهان واحتساب.

فالإيهان ينقل صاحبه إلى محبة صفات ربها لم تكن محبوبة - أو كانت باهتة ضعيفة - في طبعه وميله، ويدعوه إلى نبذ صفات ربها يهواها ويميل إليها. وهذا الارتقاء يحتاج عادة إلى عزم وجهد، حتى يصبح خلقا وسجية. وعلى هذا الصنف من الأخلاق ينطبق قول مسكويه: «ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب، وربها كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أو لا فأو لا، حتى يصير ملكة وخلقا»(١).

- الإلزام الاجتماعي:

فهو مصدر إلزام أكثر مما هو مصدر التزام. والمقصود به ما للمجتمع من سلطة معنوية تضغط وتحث - بأشكال مختلفة - من أجل الالتزام بالأخلاق والقيم السائدة فيه، وعدم مخالفتها. ومفهو مالمجتمع هنا يبدأ بالأسرة والأقارب والجيران وزملاء المهنة، ويتسع حتى يشمل القبيلة والمدينة والقطر والأمة. وقد أقر الإسلام السلطة الأخلاقية للمجتمع وعززها وضبط حدودها بفريضة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). وهي فريضة كبرى حظيت بعناية واسعة في القرآن والسنة. فهي تتيح لعموم الناس الإسهام في تقوية سلطة المجتمع وفاعليته، كما تتيح ظهور مؤسسات مجتمعية، ومبادرات فردية وجماعية، يكون من وظائفها وآثارها تعزيز أخلاق المجتمع وقيمه وحمايتها، لكن في حدود تحقيق ما هو معروف وتغيير ما هو منكر.

- الإلزام السلطان:

ونعنى به ما يصدر عن سلطة الدولة ومؤسساتها ووسائلها التشريعية

⁽١) المرجع نفسه.

والقضائية والتنفيذية. فمن صلاحيات الدولة - بل من واجباتها - تعزيز أخلاق المجتمع وقيمه، ومساعدة الناس على الالتزام بها.

وقد تقدمت الإشارة إلى الطابع الأخلاقي والمقصد الأخلاقي لعدد من العقوبات المنصوصة في الإسلام. وعلى هذا المنوال، فإن العقوبات الاجتهادية المسهاة بالتعازير، يمكن أن تشمل أي تصرف مشين يلحق ضررا أو فسادا ماديا أو معنويا، بالأفراد والمجتمع، إذا لم تنفع مع صاحبه المصادر السابقة للالتزام والإلزام. ولكن في جميع الأحوال فإن قدرا غير يسير من المساحة الأخلاقية، يبقى غير قابل أو غير مناسب للتدخل والإلزام الخارجي، وخاصة منه التدخل السلطاني، ويكون المعول فيه ضائر الناس، وعلى التربية والتثقيف.

فالأصل في الأخلاق أن قوامها ودوامها يعتمدان أساسا على الالتزام الذاتي، الطوعي الاختياري، المعزز بالتوعية والتربية، والمحصَّن باليقظة والحماية الاجتماعية. ولكن عند الضرورة - وفي حدود معينة - يُؤتَى بالوازع السلطاني، وتتدخل التدابير التشريعية والقضائية الإلزامية، عملا بقاعدة: «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور»، وقاعدة: «إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، وهما قاعدتان مرويتان عن عمر بن عبد العزيز .

فالخلاصة أن حفظ الأخلاق في النظام الإسلامي هو تعبد وتدين قبل كل شيء، ولذلك يعول فيه أولًا على البواعث الذاتية والمبادرات الطوعية، ولكنه- لأهميته وضرورته - لم يترك كلية لضهائر الأفراد ونوازعهم الفطرية، ولم يقتصر فيه على المساعدة الوعظية التوجيهية، وإنها يعول فيه أيضا على المسؤولية التضامنية للمجتمعات والجهاعات: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَتُ بَمْضُمُ أَوْلِياً لَهُ بَمْضِ مَا أَمُعُرُونِ وَالْمُؤْمِنَ عَنِ اللّهُ عَنِ اللّه عَن الله عَن الله على المسؤولية التعامنية ويَن مَن المُنكر ﴾ [التوبة: ٧١]. فإن بقي بعد ذلك نقص، أو حصل ضرر، أو لاح خطر، «فالسلطان ولي من لا ولي له»، بمعنى أن السلطة العامة - أي الدولة - تتولى معالجة كل ما فرط الناس فيه أو عجزوا عنه، وخاصة درء المفاسد والأضرار

والأخطار، وفي مقدمة ذلك ما يصيب عموم المجتمع في دينه وأمنه وأخلاقه.

فمن وظائف الدولة وواجباتها اتخاذ ما لا بد منه من التدابير الإلزامية والعقوبات الزجرية، لصيانة الأخلاق والقيم العليا للمجتمع. وباب التعازير هو أحد الأبواب التي تسمح بمعالجة هذا الأمر.

الأخلاق والتشريع في القرآن الكريم

الأخلاق والتشريع في القرآن الكريم

مكانة الأخلاق في الإسلام:

الباحث عن مكانة «الأخلاق في الإسلام»، إذا ألَمَّ بشيء من القرآن والسنة النبوية، فإنه لا يحتاج إلى كبير جهد أو كثير عناء ليتبين له أن الأخلاق في الإسلام هي أساس أسسه، وجماع مقاصده، وروح شرائعه.

وهذا ما جاء صريحا في قول رسول الله ﷺ: "إنها بعثت لأتمم صالح الأخلاق» (١)، وفي لفظ: "إنها بعثت لأتمم حسن الأخلاق» (١). ويروى أيضا بلفظ "إِنَّهَا بُعِثْتُ لِأُكْمَّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاق».

فمقاصد البعثة المحمدية مجموعة ومنحصرة في خدمة محاسن الأخلاق والبلوغ بها إلى أقصى تمامها وأعلى درجاتها. ومعنى هذا أن كل ما بُعث به وبعث له نبي الإسلام – عليه الصلاة والسلام – إنها هو وجه من وجوه الأخلاق والتخليق، أو هو وسيلة إلى ذلك. فالإيهان خلق وتخلق، والعبادة خلق وتخلق، وأحكام العادات والمعاملات أخلاق وتخلق...، بل القرآن كله والإسلام كله عبارة عن أخلاق وتخليق. روى البيهقي عن كعب بن مالك: "أن رجلا من بني سلمة سأل رسول الله عن الإسلام، فقال رسول الله عن الخلق". ثم راجعه الرجل، فلم يزل رسول الله عن يقول: «حسن الخلق»، حتى بلغ خس مرات (٢).

⁽١) رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الحاكم في المستدرك وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

⁽٢) رواه الإمام مالك في الموطأ، بلاغا. قال الحافظ ابن عبد البر في التمهيد: "وهذا الحديث يتصل من طرق صحاح، عن أبي هريرة وغيره، عن النبي ﷺ.

⁽٣) شعب الإيهان (٦/ ٢٤٢).

وهذا ما عبر عنه بعض العلماء بقولهم: «الدين كله خلق؛ فمن زاد عليك في الحلق: زاد عليك في الدين» (١).

بل إن الإيمان نفسه هو ثمرة التَخَلُّق بخلق الاعتراف بالحق والاستجابة لنداء الحقيقة، فهو عدل في الفكر وتواضع في النفس واستقامة في الفعل، كما قال تعالى عن طائفة من أهل الكتاب الصادقين: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أَنْزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَى آغَيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ اللَّهُ مِن أَهُلُ الكَتَابِ الصادقين: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أَنْزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَى آغَيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ اللَّهُ مِن أَهُلُ الكتابِ الصادقين: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أَنْزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَى آغَيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ اللَّهُ مِن أَلْكَوْ أُمِن ٱلْكَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤]..

والكفر أيضا منشؤه أخلاقي، أي من سوء الخلق؛ ولذلك عُدَّ الكافرُ جاحدا ظالمًا متكبرا، كما صرحت بذلك الآيات العديدة، كقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ اَيْتِي ظَالمًا متكبرا، كما صرحت بذلك الآيات العديدة، كقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ اَيْتِي اَلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوًّا صَيْلًا اللهِ اللهِ اللهُ الله

ولذلك اعتبر ابنُ القيم أن «أَرْكَان الْكفْر أَرْبَعَة: الْكبر والحسد وَالْغَضَب والشهوة. فالكبر يمنعه (أي يمنع صاحبه) الانقياد، والحسدُ يمنعه قبُولَ النَّصِيحة وبذها، والنَّغضَبُ يمنعه المُعدُل، والشهوةُ تَمنعه التفرَّغ لِلْعِبَادَةِ» (٢). فالعناصر الكونة للكفر والمغذية له إنها هي صفات خُلقية.

 ⁽١) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية (٢/ ٢٩٤) نشر دار
 الكتاب العربي ببيروت – الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

⁽٢) الفوائد ١٥٧ - نشر دار الكتب العلمية ببيروت - الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م.

فإذا كان القرآن يُثبَت الإيمان، فهو يُثبَت أيضا أخلاق الإيمان، وإذا كان يعالج آفة الكفر، فهو يعالج أيضا أخلاق الكفر.

وأيضا: "فإن أصل العبادة نفسه، قائم على أساس خلقي، هو الاعتراف بالفضل والنعمة وشكر المنعم المتفضل، وعلى أساس: ﴿ هَلْ جَزَآءً الْإِحْسَانِ إِلَّا الفضل والنعمة وشكر المنعم المتفضل، وعلى أساس: ﴿ هَلْ جَزَآءً الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿ هَلْ جَزَآءً الْإِحْسَانِ إِلَّا الْمِحْسَانُ ﴿ هَلْ جَزَآءً اللّهِ مَلَا عَلَى هذا تكون الإحسادات والطاعات كلها، عبارة عن تجليات خُلق الشكر، وللعمل بمقتضى العبادات في أساسها وجوهرها، إنها هي أحلاق وأفعال أخلاقية...» (١).

وهنا نحتاج أن نقف قليلا مع جواب أم المؤمنين السيدة عائشة على حين سئلت عن أخلاق النبي على فقالت: «كان خُلقه القرآن، أمّا تقرأ القرآن، قولَ الله على خُلُق عَظِيمِ » (٢).

وروى الإمام الطبري بسنده.. «أن سعيدَ بنَ هشام سأل عائشةَ عن خُلُق رسول رسول الله على فقالت: فإن خُلُق رسول الله على فقالت: فإن خُلُق رسول الله على كان القرآن (٣).

فالخُلق العظيم بتهامه وكهاله إنها هو الامتثال والتمثل لما في القرآن. وما في القرآن إنها هـو أخلاق وتخلقات، وإن عُبر عنها بتعبيرات مختلفة؛ كالعقائد والتكالف والآداب.

⁽١) معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية ٣/ ٣٠. الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٢م

⁽٢) مسئد الإمام أحمد.

⁽٣) جامع البيان، بتحيق أحمد شاكر (٢٣/ ٥٢٩) نشر مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ -٢٠٠٠ م.

ولذلك فسروا «الخُلق العظيم» في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، بأنه هو الإسلام وهو القرآن لا أقل ولا أكثر. قال الطبري: «يقول تعالى ذكرُه لنبيه محمد عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدّبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهلُ التأويل...»(١).

وها هو الدكتور محمد عابد الجابري - الدارس الموسوعي للثقافة العربية والفلسفة الإسلامية - يقرر أن «القرآن الكريم هو كتاب أخلاق قبل كل شيء، فضلا عن كونه محور ما نسميه بالموروث الإسلامي الخالص»(٢).

类类类类类

(١) جامع البيان (٢٣/ ٥٢٨).

⁽٢) العقل الأخلاقي العربي، ٥٣٥ - نشر مركز دراسات الوحدة العربية بلبنان - الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

المنظومة الأخلاقية والمنظومة التشريعية في الإسلام

المنظومة الأخلاقية والمنظومة التشريعية في الإسلام

أولا: الأخلاق الإسلامية:

أوضحتُ في المقدمة أن الأخلاق في الإسلام عامةً، وفي القرآن خاصةً، مبثوثةً وحاضرة في كل جنباته: أصولها وفروعها، كلياتها وجزئياتها، مقاصدها ووسائلها، مأموراتها ومنهياتها، فرائضها وفضائلها...

ولذلك فإن ما تخصصه عادةً كتبُ الحديث الشريف من أبواب لحسن الخلق، ومساوئ وكذلك ما جمعته وشرحته يعض الكتب من محاسن الأخلاق والشائل، ومساوئ الأخلاق والرذائل، وكذلك الدراسات الأخلاقية القديمة والحديثة، لا تتناول في الغالب إلا ما كان ظاهرا وصريحا ومباشرا في هذا الباب. أما الأخلاق المفصلة الكاملة فأوسع من أن تُستقصى وتُجمع، لكونها ثاويةً في كل المعاني والمباني الإسلامية. وإذا نظرنا - مثلا - إلى عمل الدكتور محمد عبد الله دراز وحده، وهو عبارة عن أطروحة جامعية محدودة، فسنجد أنه - لكي يبرز لنا (دستور الأخلاق في القرآن) - كاد أن يسرد لنا القرآن كله ويقول: تلكم هي المنظومة الأخلاقية في القرآن الكريم (۱).

فلم يبق أمام بحث قصير محدود - كهذا - سوى الاقتصار على إيراد بعض التعبيرات الجامعة لقسمات المنظومة الأخلاقية ومناحيها وتوجهاتها في القرآن الكريم خاصة، وفي الإسلام عامة.

⁽۱) انظر على سبيل المثال سرده المتواصل للآيات المتعلقة بالأخلاق العملية، على مدى الصفحات من 7٩١ إلى ٧٧٨ - تعريب عبد الصبور شاهين - نشر مؤسسة الرسالة ودار البحوث العلمية - د.ت.

على أن تقديم صورة مركبة ومركزة للمنظومة الأخلاقية الإسلامية لا ينبغي أن يقتصر ولا أن يعتمد كثيرا على ما صاغه الفلاسفة الإسلاميون قديها، أو بعض أساتذة الفلسفة حديثا؛ لأن هؤلاء في الغالب ينطلقون من التراث الفلسفي اليوناني القديم، أو الأوروبي الحديث. وبعض المتقدمين ينتقون من الحكم والآداب الفارسية والهندية ما لذ طَعمه وطاب ريحه... ثم يمزجون ذلك بجملة من الآيات والأحاديث والآثار الإسلامية. وللذلك قلها تجدعندهم الصورة الكاملة ولا الخالصة للمنظومة الأخلاقية الإسلامية. وقد سعى الدكتور محمد عابد الجابري جاهدا إلى وضع اليد على ما يمثل حقيقة «الأخلاق الإسلامية الحقيقية»، فأطال التطواف والترحال والبحث والفحص، إلى أن حط رحاله ووجد بعض ضالته عند الإمام عز الدين بن عبد السلام وكتابيه (قواعد الأحكام) و (شجرة المعارف والأحوال).

وخلافا للدكتور محمد عبد الله دراز الذي توصل إلى أن خلق «التقوى» هو الخلق المركزي والجوهري في المنظومة الأخلاقية الإسلامية (١)، فإن الجابري - وبناء على قراءته لعز الدين بن عبد السلام - انتهى إلى أن القيمة الأساسية للأخلاق الإسلامية تتمثل في «العمل الصالح»، أو «أخلاق العمل الصالح» (٢).

والذي يظهر بوضوح ويسر من قراءة كتاب (شجرة المعارف والأحوال) لابن عبد السلام، هو أن جوهر الأخلاق الإسلامية ومحركها ومعيارَها عنده هو عنصر «الإحسان». وهذا - في الحقيقة - ليس ببعيد عما قرره الجابري، بل يكاد يكون هو هو، ولكن الدقة والمطابقة لما في الكتاب تقتضيان القول - بدون تردد - بأن مضمون الكتاب كله مَبنيٌ على عنصر الإحسان ومصطلح الإحسان، وأن ذلك

⁽١) انظر: دستور الأخلاق في القرآن، ٦٨١.

⁽٢) انظر الفصل الثالث والعشرين من كتابه (العقل الأخلاقي العربي)، وهو بعنوان: ﴿في الإسلام: المصلحة أساس الأخلاق والسياسة ».

ليس منحصرا في كون «العز بن عبد السلام يخص الإحسان باهتهام خاص (١٦٠ صفحة)، فيصنفه أصنافا...»(١).

فابن عبد السلام منذ بداية الكتاب يقول: «وبعد، فإن الله فضل الإنسان بالنطق والبيان، والعقل والعرفان، ثم أدبه بالقرآن، وأمره بكل بر وإحسان...» (٢). ثم يضيف: «فانحصر الإحسان في جلب المصالح الخالصة أو الراجحة، وفي دفع المفاسد الخالصة، وانحصرت الإساءة (٣) في جلب المفاسد الخالصة أو الراجحة، وفي دفع المصالح الخالصة والراجحة (٤)».

وقد جعل البابَ الثاني "في التخلق بصفات الرحمن على حسب الإمكان"، وختمه ولخصه بالقول: "من أفضل التخلقات أن تحسن إلى عباد الله بمثل ما أحسن به إليك، وأن تُنعم عليهم بمثل ما أنعم به عليك. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِمَ فَلَانَقْهَرُ ﴿ وَأَمَّا الْيَتِمَ عَلَيْكَ، فَإِنا وجدناك عائلاً فأغنيناك، ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِكَ فَحَدِثُ ﴾ [الضحى: ١١]، أي: حدثهم بها أنعمنا به عليك من هدايتنا، فإنا وجدناك ضالا فهديناك ()

وأما الباب السابع فهو «في الإحسان العام...».

وقد بدأه بالقول: «كل من أطاع الله فهو محسن إلى نفسه بطاعته، فإن كان في

⁽١) العقل الأخلاقي العرب، ٢٠٩.

⁽٢) شجرة المعارف والأحوال، ١١.

⁽٣) التي هي ضدُّ الإحسان. وعلى هذا الأساس، ولكون تَوقي الإساءة هو نوع من الإحسان، اعتنى الإمام بشتى أنواع الإساءات الظاهرة والباطنة، وخصص لها البابين السادس والرابع عشر. فحديثه عن الإساءة هو حديث عن وجه من وجوه الإحسان.

⁽٤) شجرة المعارف والأحوال، ١٢-١٣.

⁽٥) شجرة المعارف والأحوال، ٤٢.

طاعته نفع لغيره فهو محسن إلى نفسه وإلى غيره. وإحسانه إلى غيره قد يكون عاما وقد يكون خاصا. والإحسان عبارة عن جلب مصالح الدارين أو إحداهما،، ودفع مفاسدهما أو إحداهما...»(١).

وأما الباب الثامن فجعله «في ضروب الإحسان المذكور في كتب الفقه».

يليه الباب التاسع، وهو «في الإحسان بإسقاط الحقوق»،

فالباب العاشر، «في الإحسان ببذل الأموال»،

ثم الباب الحادي عشر «في الإحسان بالأخلاق والأعمال»،

والباب الثاني عشر «في الإحسان بالأقوال»،

والباب الثالث عشر «في الإحسان بالدعاء القاصر والمتعدي»،

ثم يأتي الباب السابع عشر بعنوان «في الإحسان المتعلق بالجهاد»،

وحتى حين تخلو عناوين بعض الأبواب من كلمة «الإحسان»، فإننا نجدها بكثافة في عناوين الفصول، فضلا عن تفاصيلها.

ومن الواضح أن ابن عبد السلام قد جعل من كتابه هذا تشجيرا بيانيا للآية الكريمة ﴿ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْمَدْلِوَا لِإِحْسَنِينَ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَكَ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنْكَدِ وَٱلْمَغْيُّ يَعِظُكُمْ لَمَلَكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]..

⁽۱) ئ<mark>قسە، ص۱۱۲.</mark>

 ⁽٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، (٢٤/ ٣٦٣ - ٣٣٤) - نشر وزارة الأوقاف والشؤون
 الإسلامية المغربية - ١٣٨٧هـ.

نهاذج أخرى لتحديد أمهات الأخلاق الإسلامية:

استقصاء الشاطبی:

نص الشاطبي مرارا على أن معظم ما نزل من القرآن الكريم في العهد المكي كان من الأصول الكلية ذات الطبيعة الأخلاقية، ثم نزلت مكملات لها في العهد المدني. وميزة الشاطبي أنه حين يذكر هذه المبادئ الأخلاقية، فإنه يذكرها باعتبارها شرائع كلية وأصولا تشريعية، وليس باعتبارها مجرد مواعظ ورقائق وآداب.

فما ذكره من ذلك: أن الله تعالى «أمر بمكارم الأخلاق كلها؛ كالعدل والإحسان، والوفاء بالعهد، وأخذ العفو، والإعراض عن الجاهل، والدفع بالتي هي أحسن، والخوف من الله وحده، والصبر والشكر ونحوها. ونهى عن مساوئ الأخلاق؛ من الفحشاء والمنكر والبغي، والقول بغير علم، والتطفيف في المكيال والميزان، والفساد في الأرض، والزنى والقتل والوأد، وغير ذلك عما كان سائرا في دين الجاهلية. وإنها كانت الجزئيات المشروعات بمكة قليلة والأصول الكلية كانت في النزول والتشريع أكثر.

ثم لما خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى المدينة واتسعت خطة الإسلام، كملت هنالك الأصول الكلية على تدريج؛ كإصلاح ذات البين، والوفاء بالعقود، وتحريم المسكرات، وتحديد الحدود التي تحفظ الأمور الضرورية، وما يكملها ويحسنها، ورفع الحرج بالتخفيفات والرخص، وما أشبه ذلك كله، تكميلا للأصول الكلية (1).

وفي سياق آخر تطرق الشاطبي إلى هذه الكليات القرآنية، الأخلاقية التشريعية، فعددها بمزيد من الاستقصاء والتفصيل، فقال: «كالعدل والإحسان، والوفاء

⁽١) الموافقات ٣/ ٢٠٢، بتحقيق الشيخ دراز - نشر دار المعرفة بيروت - دت.

بالعهد، وأخذ العفو من الأخلاق، والإعراض عن الجاهل، والصبر، والشكر، ومواساة ذي القربي والمساكين والفقراء، والاقتصاد في الإنفاق والإمساك، والدفع بالتي هي أحسن، والخوف، والرجاء، والانقطاع إلى الله، والتوفية في الكيل والميزان، واتباع الصراط المستقيم، والذكر لله، وعمل الصالحات، والاستقامة، والاستجابة لله، والخشية، والصفح، وخفض الجناح للمؤمنين، والدعاء إلى سبيل الله، والدعاء للمؤمنين، والإخلاص، والتفويض، والإعراض عن اللغو، وحفظ الأمانة، وقيام الليل، والدعاء، والتضرع، والتوكل، والزهد في الدنيا، وابتغاء الآخرة، والإنابة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتقوى، والتواضع، والافتقار إلى الله، والتزكية، والحكم بالحق، واتباع الأحسن، والتوبة، والإشفاق، والقيام بالشهادة، والاستعاذة عند نزغ الشيطان، والتبتل، وهجر الجاهلين، وتعظيم الله، والتذكر، والتحدث بالنعم، وتلاوة القرآن، والتعاون على الحق، والرهبة، والرغبة، وكذلك الصدق، والمراقبة، وقول المعروف، والمسارعة إلى الخبرات، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والرجوع إلى الله ورسوله عند التنازع، والتسليم لأمر الله، والتثبت في الأمور، والصمت، والاعتصام بالله، وإصلاح ذات البين، والإخبات، والمحبة لله، والشدة على الكفار(١)، والرحمة للمؤمنين، والصدقة. هذا كله في المأمورات.

وأما المنهيات: فالظلم، والفحش، وأكل مال اليتيم، واتباع السبل المضلة، والإسراف، والإقتار، والإثم، والغفلة، والاستكبار، والرضى بالدنيا من الآخرة، والأمن من مكر الله، والتفرق في الأهواء شيعا، والبغي، واليأس من رَوْح الله،

⁽١) هذا في أثناء الحرب والقتال ومقارعة البغي والعدوان، أما في غير ذلك من المعاملات المدنية والعلاقات العادية، فالأصل هو البر والإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَا كُو اللّهِ عَنِ اللّهِ عَنَ اللّهِ عَنَ اللّهِ عَنَى اللّهُ عَنَى اللّهُ عَنَى اللّهُ عَنَى اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَّمُ اللّهُ عَاللّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللّهُ عَالَيْ اللّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَالِمُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَا اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلْمُ عَلَى اللّهُ عَلَّا عَلَى الللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَمُ عَلَّا عَلَّا عَلَ

وكفر النعمة، والفرح بالدنيا، والفخر بها، والحب لها، ونقص المكيال والميزان، والإفساد في الأرض، واتباع الآباء من غير نظر، والطغيان، والركون للظالمين، والإعراض عن الذكر، ونقض العهد، والمنكر، وعقوق الوالدين، والتبذير، واتباع الظنون، والمشى في الأرض مرحا، وطاعة من اتبع هواه، والإشراك في العبادة، واتباع الشهوات، والصدعن سبيل الله، والإجرام، ولهو القلب، والعدوان، وشهادة الزور، والكذب، والغلوفي الدين، والقنوط، والخيلاء، والاغترار بالدنيا، واتباع الهوى، والتكلف، والاستهزاء بآيات الله، والاستعجال، وتزكية النفس، والنميمة، والشح، والهلع، والضجر، والمن، والبخل، والهمز، واللمز، والسهو عن الصلاة، والرياء، ومنع المرافق، وكذلك اشتراء الثمن القليل بآيات الله، ولبس الحق بالباطل، وكتم العلم، وقسوة القلب، واتباع خطوات الشيطان، والإلقاء باليد إلى التهلكة، وإتْبَاع الصدقة بالمن والأذى، واتّباع المتشابه، واتخاذ الكافرين أولياء، وحب الحمد بما لم يفعل، والحسد، والترفع عن حكم الله، والرضى بحكم الطاغوت، والوهن للأعداء، والخيانة، ورمى البريء بالذنب وهو البهتان، ومُشاقّة الله والرسول، واتباع غير سبيل المؤمنين، والميل عن الصراط المستقيم، والجهر بالسوء من القول، والتعاون على الإثم والعدوان، والحكم بغير ما أنزل الله، والارتشاء على إبطال الأحكام، والأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، ونسيان الله، والنفاق، وعبادة الله على حرف، والظن، والتجسس، والغيبة، والحلف الكاذبة، وما أشبه ذلك من الأمور...»(١).

الأخلاق المشتركة بين الأنبياء في نظر ابن العربي:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ مُوحًا وَالَّذِى ٓ أَوْ حَيْسَاً إِلَيْكَ وَمَا وَضَيْنَا بِهِ ۚ إِبْرَهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ۖ أَنْ أَقِمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا لَنَفَزَقُواْ فِيدُ ﴾ [الشورى: ١٣]،

⁽١) الموافقات ٣/ ١٣٥ - ١٣٧.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: «المعنى: ووصيناك يا محمد ونوحا دينا واحدا، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع، وهي التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والتقرب إلى الله تعالى بصالح الأعمال، والتزلف بها يرُدُّ القلبَ والجارحة إليه، والصدقُ، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكفر، والقتل، والإذاية للخلق كيفها تصرفت، والاعتداء على الحيوانات كيفها كان، (٢) واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات.. فهذا كله شُرِعَ دينا واحدًا وملة متحدة، لم يَختلف على السنة الأنبياء» (١).

• ومن المعاصرين:

- عملَ الشيخ عبد الرحن حبنكة الميداني في كتابه (الأخلاق الإسلامية وأسسها) على استقراء الصفات الخلقية المحمودة في الإسلام، وإرجاعِها إلى أصول كلية جامعة لها، وانتهى إلى حصر تلك الأصول في أحد عشر أصلاهى:

الأصل الأول: حب الحق وإيثاره.

الأصل الثاني: الرحمة.

الأصل الثالث: المحبة.

الأصل الرابع: الدافع الاجتماعي.

الأصل الخامس: قوة الإرادة.

الأصل السادس: الصبر.

الأصل السابع: حب العطاء.

⁽۱) أحكام القرآن ٤/ ٨٩ - ٩٠ - نشر دار الكتب العلمية ببيروت - الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٧٠٠٣.

الأصل الثامن: علُّو الهمة.

الأصل التاسع: سياحة النفس.

وهذه الأصول التي ترجع إليها وتنضوي تحتها المفردات التفصيلية لمكارم الأخلاق، لها أضدادٌ ترجع إليها المفردات التفصيلية للرذائل والنقائص الخلقية...»(١).

وبعد هذه الأصول التسعة، التي خصص لدراستها تسعة فصول، أضاف في فصل عاشر أصلين آخرين، اعتبرهما منبثقين عن « أكثر من أساس خلقي»، وهما:

العفة (مع ضدها)،

والشجاعة (مع ضدها)(٢).

- ومن أحدث التصنيفات الكلية لأصول الأخلاق الإسلامية وأمهاتها، ما تضمنه المجلد الثالث من (معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية). وقد جَمعت هذه الأصول الأمهات في عشرة أصول هي:

١ - الرحمة . ٢ - الاستقامة .

٣- التقوى . ٤ - الشكر .

٥- الصبر . ٦- الصدق .

٧- العدل . ٨ العفة .

٩- الوفاء . ٩- السياحة .

فعن هذه الأصول العشرة ينبثق معظم المنظومة الأخلاقية في الإسلام، وفي

⁽۱) الأخلاق الإسلامية وأسسها، ١/ ١٧ ٥ - نشر دار القلم بدمشق - الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. (٢) المرجع السابق، ٢/ ٥٨١ .

أضدادها تتجسد الأخلاق المذمومة المنهي عنها، وعن الجميع تنبثق تشريعات إسلامية لا حصر لها...

ثانيا: المنظومة التشريعية:

التشريع مصدر «شرَّع» الرباعي. وأصله شَرَع يَشْرَع شرعا وشِرْعَة وشريعة.

وبتتبع الاستعمالات القديمة والحديثة لمصطلح «التشريع» في الثقافة الإسلامية، نجد أنه يستعمل على مسوتيات عديدة وبمعان متفاوتة، وإن رجعت كلها إلى أصل واحد.

فهو مستعمل:

١- بمعنى: كل ما شرعه الله تعالى لعباده، من معتقدات وعبادات وآداب وأحكام تنظيمية لحياتهم وعلاقاتهم. وهذا هو المعنى الوارد في قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَكَ عَلَى شَرِيعَة مِنَ ٱلأَمْرِ فَالتَّعِهَا وَلَا لَتَمْ عِلَا اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ

﴿ أَمْ لَهُ مْ شُرَكَتُوا شَرَعُوا لَهُم مِنَ الدِينِ مَا لَمْ يَأْذَنَا بِدِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

٢- بمعنى: الأحكام الشرعية العملية، وهي التي يتناولها الفقه والفقهاء. فالتشريع الإسلامي - في هذا الاستعمال - مساو للفقه الإسلامي، بمعنى أنه يشمل العبادات والأحكام الدنيوية، ويشمل إلى جانب الواجبات والمحرمات، المندوبات والمكروهات، وكذا المباحات. وهو المعنى الوارد في قوله على: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَامِنكُمْ وَالْمَكُرُ وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، قالشرعة التي تختلف وتتغير من أمة إلى أمة، إنها هي شِرْعَةُ الأحكام العملية، أما العقائد والأخلاق والتشريعات الكلية، فهي ثابتة في جميع الرسالات، كها تقدم قريبا في كلام ابن العربي.

٣- بمعنى: الأحكام الشرعية التي يرجع تنفيذها إلى الدولة ومؤسساتها،

وخاصة المؤسسة القضائية. وهذا الاستعمال المضيق استعمال حديث، يكثر استعماله عند المعاصرين، وهو متأثر بالمعنى القانوني للتشريع. فلذلك لا يشمل العبادات، وكذلك لا يشمل المندوبات والمكروهات. ولا يتناول المباحات إلا عرضا.

وعلى هذا الاستعال مضى الشيخ ابن عاشور في كتابه (مقاصد الشريعة الإسلامية). قال على المنه في المنه في المنه أن أريد به ما هو قانون للأمة، ولا أريد به مطلق الشيء المشروع، فالمندوب والمكروه ليسا بمرادين لى، كما أرى أن أحكام العبادات جديرة بأن تسمى بالديانة...»(١).

وأنا - في هذا البحث - سأمضي على الاستعمال الأوسط. فهو الاستعمال الذي تدور عليه مصطلحات الشرع والشريعة والتشريع، عند جماهير العلماء منذ قرون طويلة.

وأما المعنى الأول، فرغم صحته وأصالته، فلم يعد هو المعنى المتبادر، كما أنه ليس هو المراد في اصطلاح هذه الندوة ومقصودها.

وأما المعنى الثالث، فلا أستبعده، بل هو وارد في كلامي حسب ما يظهر من السياق، غير أني لا أريد التقيد به، لأني لا أجد ما يحتم علي تقزيم «التشريع الإسلامي»، ليبقى مفهومه محصورا في دواليب الدولة، ولتبقى قامته في حدود قامة «التشريع القانوني».

操作条件

⁽١) مقاصد الشريعة الإسلامية، ١٢٩ - نشر دار سحنون ودار السلام ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

الأخلاق وأصول التشريع

الأخلاق وأصول التشريع

كثيرون عمن كتبوا عن الأخلاق في القرآن، أو الأخلاق في الإسلام، أو الأخلاق في الإسلام، أو الأخلاق في التراث العربي الإسلامي... ربطوا بين «الأخلاق والفلسفة»، وبين «الأخلاق والتصوف»، وبين «الأخلاق وعلم الكلام»، وبين «الأخلاق والسياسة»...

ولكنَّ الربط بين «الأخلاق والفقه» شبه منعدم.

وعامةُ مَن صنفوا في «الأخلاق الإسلامية»، من القدماء والمعاصرين، يجعلونها عبارة عن «آداب»، ويقسمونها - مثلا - إلى آداب مع الله، وآداب مع النفس، وآداب مع الناس، إلى ما يتبع ذلك من إضافات وتفريعات. وقسمها أبو الحسن الماوردي إلى (أدب الدنيا والدين)، ثم فصل في أنواع هذه الآداب بقسميها الديني والدنيوي...

أما النظر إلى الأخلاق والتحدث عنها بمنطق الوجوب واللزوم والتحريم والمنع، أي بلغة الفقه والأصول، فهذا ما لا نعثر عليه إلا نادرا وعابرا.

ومن الاستثناءات التي يجب ذكرها، ما قام به الدكتور جمال نصار في كتابه (مكانة الأخلاق في الفكر الإسلامي) (١)، حيث خصص الفصل الثاني منه لـ «الجانب الأخلاقي عند الفقهاء». وفي هذا الفصل ملامسة خفيفة لبعض القواعد الفقهية والمباحث الأصولية، في علاقتها بالأخلاق، وهي:

- قاعدة لا ضرر ولا ضرار،
 - قاعدة المصالح المرسلة،

⁽١) نشر دار الوفاء بالمنصورة - ط١/ ١٤٢٥ - ٢٠٠٤.

- مبحث الواجب عند الأصوليين،
 - مسألة الحيل.

ورغم أن هذا الفصل بمبحثيه هو أقرب إلى الأصول منه إلى الفقه، وليس فيه - على التحقيق - فقه ولا فقهاء، فإن لصاحبه فضلَ الالتفات إلى الربط بين الفقه الإسلامي والأخلاق.

وأما الدكتور محمد عابد الجابري فأشار إلى الموضوع إشارة عابرة بقوله: «لقد اتجه الفقهاء إلى العبادات والمعاملات، واهتموا بالجانب القانوني فيها، وأهملوا إهمالا شبه تام فقه الأخلاق العربية الإسلامية...»(١).

ورغم أن علاقة الفقهاء مع الأخلاق ليست بهذه الدرجة من السلبية أو القطيعة، فإن هذا القول فيه قدر كبير من الصواب؛ حيث إن الفقه الإسلامي غلب عليه بمرور الزمن الطابع القانوني، وضمرت فيه الجوانب والآثار العقدية والخلقية والتربوية والإصلاحية. وقد صار عامة الفقهاء يعتبرون أن اختصاصهم واختصاص علمهم هو «الحلال والحرام»، أو «الأحكام الشرعية»، سواء منها التكليفية أو الوضعية. وأما الجوانب الأخرى من الدين والتدين، فلها أهلها وعلومها؛ كعلم التوحيد، والتصوف، وكتب الزهد والرقائق... وحتى في بعض الحالات التي يلتفت فيها الفقهاء إلى الاعتبارات الخلقية، ويربطون بها الأحكام الفقهية، فإنهم غالبا ما يسوقونها على سبيل الاستئناس والترغيب فقط، وليس على سبيل المحجّية والإلزام، مع أنه «ليس في الإسلام تشريع، أو حكم، إلا وله أصل خلقي، وعتوى خلقي، ومقصد خلقي» (٢).

⁽١) العقل الأخلاقي العربي، ٩٤.

 ⁽٢) الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، للريسوني ٧٢- نسخة خاصة للمؤلف، والكتاب مطبوع عدة طبعات.

والجواب الجاهز لدى الفقهاء والأصوليين، هو: أن الفقه يتحرى الضبط في الأحكام وعللها وأسبابها ومناطاتها، بينها الأخلاق والمعايير الأخلاقية غير منضبطة، فيعسر بناء الأحكام عليها...

وهذا صحيح، ولكنه لا يينبغي أبدا أن يُؤدي إلى إغفال المكانة العليا والمرجعية الكلية للأخلاق في الإسلام، وأنها تستلزم تأسيس الفقه على الأخلاق وربطه بها ربطا مؤثرا، بدل توهين هذه المرجعية بحجة صعوبة الضبط والانضباط فيها. والفقيه لا يكون فقيها حتى يضبط ما يبدو غير منضبط، وفي هذا المقام قال ابن عبد السلام: «فإن ما لا يُحَدُّ ضابطه لا يجوز تعطيله، ويجب تقريبه» (١).

وعلى ذكر ابن عبد السلام أود أن أنوه بالعمل الرائد المتميز، الذي قام به هذا الإمام في الربط بين الأخلاق والفقه، وذلك في كتابه (شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال)، حيث جعل «الباب الثامن في ضروب من الإحسان المذكور في كتب الفقه»(٢).

وقد استهل هذا الباب بتقسيم «الإحسان الشرعي إلى أنواع:

- أحدها: فرض عين كالزكوات والنفقات،
- الثاني: فرض كفاية، كالجهاد وتجهيز الأموات،
- الثالث: سنة عين، كالضحايا والهدايا والصدقات،
- الرابع: سنة كفاية، كتسليم أحد الجماعة على من يمرون بهم من الآحاد والجماعات»(٣).

⁽١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ٢/ ١٢ - نشر دار المعارف بلبنان.

⁽٢) من ص ١١٧ إلى ص ١٣٩ - منشورات محمد علي بيضون ودار الكتب العلمية ببيروت - الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

⁽٣) الشجرة ١١٧.

هذا مع العلم أن السائد في كلام العلماء هو أن الإحسان - وهو ذو منبع خلقي - كله عبارة تفضل وتبرع وتطوع.

وتتمةً لكلام ابن عبد السلام، يمكن أن نقول: إن الإحسان كما يكون في فعل الواجب والمندوب، يكون كذلك في ترك المحرم والمكروه، ويكون كذلك في التعامل مع المباح. بعبارة أخرى: فالاعتبارات الأخلاقية لا تنحصر في الآداب ومكارم الأفعال، بل تدخل في كل أحكام الشريعة، الإلزامية والتطوعية معا.

وقد لـمَحت الكاتبة الإيطالية الدكتورة لوريا فيشيا فاكليري هذا المعنى وألمحت إليه في قولها: «فالفضائل نفسها التي تقدمها اليهودية والنصرانية بوصفها الغاية القصوى لحياة الإنسان، لا يقدمها الإسلام كمثل عليا فحسب، بل يأمر بها كمثل عليا أيضا. ومن هذه المثل العليا: لإشفاق على المخلوقات جميعا، وحسن التفهم، والصفح، والبساطة، واللياقة في العلاقات الاجتماعية، وتقبل الرزايا، وما إلى ذلك...»(١). فالمثل العليا في الإسلام ليست مجرد أشواق وآفاق وردية جميلة، يعشقها من يريد، ويتركها من يريد، بل هي مأمورات وتكاليف لها حرمتها وإلزاميتها، مع ترك مساحة للتطوع والارتقاء الاختياري.

الفقه والأخلاق، أو شريعة الظاهر والباطن:

من مظاهر السمو والكهال في الشريعة الإسلامية، كونُها شريعة تشمل أحكامُها - في آن واحد - باطنَ الإنسان وظاهرَه، قلبَه وجوارحَه، سرَّه وعلانيتَه. فالإنسان - مثلا - قد يُظهر الخير والصلاح، ويضمر الشر والفساد، وقد يكون فيها يراه الناس ويعلمونه على حال، وفيها غاب عنهم على خلافها. والشريعة حاكمة عليه في

⁽۱) دفاع عن الإسلام ٧٦ - ترجمة منير البعلبكي - نشر دار العلم للملايين بلبنان - الطبعة الخامسة ١٩٨١.

سره وعلانيته، فيها يظهره وفيها يضمره. فإذا أوجبتُ شيئا، فهو واجب في الظاهر والباطن، وإذا حرمت شيئا فهو حرام في الظاهر والباطن. هذا فضلا عن كون الباطن له واجباته ومحرماته الخاصة به.

- قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي ٱلْفُولِدِشَ مَاظُهُرَ مِنْهَا وَمَابَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].
- وقال: ﴿ وَلَا تَقْدَرُبُوا ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظُهَدَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام: ١٥١].
- وقال: ﴿وَذَرُوا ظَلْهِرَ ٱلْإِنْمِ وَبَاطِنَهُۥ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجَزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠]..
- وقال أيضا: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي آنَفُسِكُمْ أَوْتُخْفُوهُ يُكَاسِبُكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]

وقد يلوح من هذا التقسيم أن الفقه - أو التشريع بمعناه الاصطلاحي- يختص بحكم الظاهر من الأفعال والأحوال، وأن الأخلاق تختص بحكم الباطن منها. وهذا صحيح إلى حدما، وأما الصحيح تماما، فهو أن الأفعال الظاهرة يحكمها الفقه والتشريع ولا يتجاوزها، وأما الأخلاق فتَحكم الظواهرَ والضهائر، وتتدخل فيهما معا.

أعني أن الأحكام التشريعية الفقهية لا حكم لها على السرائر وما تكنه الضمائر، وأن الحكم في هذا المجال أخلاقي وأخروي.

فالحب والرقة والعطف والشفقة والإخلاص والنية الحسنة والتقوى وحسن الظن وتواضع النفس وعزتها وعفتها... إلى غير ذلك من المكارم القلبية النفسية،

وكذلك ما في الجهة الأخرى، من الكبر والنفاق والرياء والنية السيئة وسوء الظن والطمع والجشع والحقد والحسد...وغير ذلك من الآفات القلبية والنفسية،

هذه الأمور لا سلطان عليها للفقه والتشريع والقضاء، ما دامت في داثرتها

الباطنية (القلب والنفس والضمير)، وإنها حاكمُها والمعولُ عليه فيها هو الوازع الخلقي الدياني والجزاء الأخروي.

وكذلك الشأن في الأفعال الخفية التي يتعذر على غير أصحابها الاطلاع عليها وإثباتها، أو يتعذر فحصها ومعرفة حقيقتها، فهي داخلة أيضا في حكم «السرائر والضهائر» التي تُوكَل لكل واحد مع نفسه ومع ربه. ولكنها تدخلها الأحكام والتوجيهات الخلقية، التي تشتغل ذاتيا. قال الشاطبي: «وما لا ينضبط رُدَّ إلى أمانات المكلفين، وهو المعبر عنه بالسرائر»(۱).

ومعنى هذا أن ما لا يسري عليه ولا يضبطه سلطان التشريع والقضاء والجزاء الدنيوي، لا يبقى غُفْلا من أي حكم أو تبعة أو مسؤولية، بل يسري عليه سلطان الأخلاق والحساب الأخروي. كما أن أحكام الظاهر لا تُسقط حقائق الباطن وأحكامه. ومن هنا قرر الفقهاء أن «حكم الحاكم لا يحل حراما ولا يحرم حلالا»؛ أي أن ما يكون حراما وباطلا في علم الله وحكمه، إذا لم يتمكن القاضي من معرفة بطلانه، فحكم به لمن ادعاه وأثبته زورا، فهو باق على تحريمه وبطلانه من الناحية الديانية الأخروية. والعكس صحيح أيضا. فالحكم القضائي الدنيوي لا يسقط الحكم الأخلاقي الأخروي.

يقول الشيخ مصطفى الزرقا عِنْكَالله: «ومن هنا افترق الفقه الإسلامي حتى في

⁽١) الموافقات ٢/ ٣٠٩.

القسم المدني منه - وهو المعاملات - عن القوانين المدنية الوضعية (أى التي ليس لها صفة دينية، بل هي من وضع الأمم لنفسها). ففي تلك القوانين، لا محل لفكرة الحلال والحرام، ولا عبرة لبواطن الأمور، بل العبرة للظواهر والصور؛ فيا أمكن منه القانونُ وقضت به الأحكام كان حقا سائغا، وما لم يكن منه فليس بحق. أما الفقه الإسلامي، فللاعتبار الديني في مبناه، كانت فكرة الحلال والحرام رقيبا باطنيا، ترافق الإنسان وتنادى به في كل عمل. والعبرة في تعلق الحقوق للحقائق، وإن كان القضاء يجري ضرورة على الظاهر»(١).

والنتيجة: أن الأخلاق تتقدم حيث يتوقف التشريع، وتنفع حيث لا ينفع القضاء. فوظيفة الأخلاق مكملة لوظيفة التشريع، أو لعل الأحرى أن نقول: إن وظيفة التشريع مكملة لوظيفة الأخلاق.

غير أن علاقة الأخلاق بالتشريع ليست محصورة هنا، بل الأخلاق عنصر مؤسس للتشريع وموجه لأحكامه وبوصلته، وهذا ما يمكن تسمبته بالوظيفة الأصولية للأخلاق.

دخول الأخلاق في تأسيس الأحكام التشريعية:

الناظر في أحكام القرآن (٢)، يجد أن كثيرا منها تم ربطه ودمجه بشكل صريح مع علله ومقاصده الخلقية. وهذا واقع في جميع المجالات التشريعية؛ من عبادات، ومعاملات مالية واجتماعية، وسياسة شرعية، وعلاقات خارجية في السلم والحرب... وهذا الربط القرآني بين الأحكام والأخلاق، لا بدوأن ينعكس في الاجتهاد الفقهي في الفتوى والتشريع.

⁽١) المدخل الفقهي العام ١/٥٦.

⁽٢) والسنة النبوية كذلك.

وفيها يلي بعض النهاذج لتأسيس الأحكام على الأخلاق، وهي من مجال واحد، بل من جانب واحد من هذا المجال، وتتعلق بالعلاقات الزوجية.

للفقهاء قاعدة جليلة (١) يعبرون بها عن الخصوصية الأخلاقية لفقه العلاقات الزوجية، وهي قولهم: «النكاح مبنيٌّ على المكارمة»، أو «مبنَى النكاح على المكارمة» أو «مبنَى النكاح على المكارمة» (٢)، أو «مبنى النكاح على المسامحة والمروءة» (٣). وللمقارنة وتمام المعنى يقولون: «البيع مبنى على المشاحَّة، والنكاح مبنى على المكارمة» (١).

والمكارمة هنا تعني تعامل الزوجين بكرم متبادل، يتمثل في أن يؤدي كل منهما حق الآخر ويزيد عليه، وأن يتسامح ويتغاضى عن بعض حقوقه، حبا وكرامة وهدية. فهذه هي طبيعة الزواج والعلاقات الزوجية، أو هكذا يجب أن تكون.

أما الحرص على الاستيفاء التام لجميع الحقوق، مع المشاحَّة والمحاسبة والمخاصمة على النَّقير والقِطْمِير، والجليلِ وَالْحِقِير، فهذا لا يليق بالزواج والعلاقة الزوجية. فالعلاقة الزوجية ليست تجارة ولا إجارة، ولا معاوضة على المنافع والحقوق (٥).

وهذا المعنى الكبير قد صرحت به وحثت على مراعاته آيات عديدة من الذكر الحكيم.

(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، ٢/ ٣٠٥ - نشر دار الفكر بلبنان - دت. والتحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور ٤/ ٢٤.

⁽١) أكثر ما توجد هذه القاعدة عند المالكية، ثم الحنفية.

⁽٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين لكاساني ٢/ ٢٨٣ - نشر دار الكتب العلمية - الطبعة الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦ م.

⁽٤) شرح مختصر خليل للخرشي ٣/ ٢٣٧ - دار الفكر بلبنان - دت.

⁽٥) لمزيد من التوضيح والتطبيق، راجع القاعدة رقم ١٤٩٤، المجلد ٢٣، من (معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية).

- بل إن الحياة الزوجية يجب أن تصل إلى حد أن يتلبس كل من الزوجين صاحبَه ويندمج فيه. وهذا ما تقرره الآية الكريمة: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمُ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ . [البقرة: ١٨٧]
- والحياة الزوجية المنشودة لا تتحقق ولا تدوم إلا بالمعاشرة الكريمة السمحة، المسلحة بالصبر والتحمل والتجاوز، فيها عساه يكون مزعجا وغير ملائم لدى شريك الزوجية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْ تُمُوهُنَّ فَان كَرَهُوا شَيْعًا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيِّراً كَاللَّهُ النساء: ١٩].
- وحتى في حالة الشقاق والفراق، فإن الله سبحانه يوصي بأن تظل أخلاق
 التسامح والعفو والمكارمة هي العملة الرائجة بين الزوجين المفترقين:
- كما في قوله على: ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُو إِن طَلَقَتُمُ النِسَاةَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَ أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتْعُوفِ مَنْ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ، مَتَعُا بِالْمَعُهُوفِ حَقَّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿ وَإِن طَلَقَتْمُوهُنَ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَ وَقَدْ فَرَضَتُ مُ لَئُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُم إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُونَ اللَّهُ يَمَا يَعْفُوا اللَّهُ مِمَا يَعْفُوا اللَّهُ عَلَى اللَّهُ يَمَا لَهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّه

- وقوله أيضا: ﴿ وَإِنَّ أَرَدَتُمُ ٱسْتِبْدَالَ ذَوْج مَّكَاكَ زَوْج وَمَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَكِيْعاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهَ تَنَا وَإِثْمَا مُّبِينًا ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ قَنْكَ بَعْضُ حَكُمْ إِلَى اللهِ عَلَىٰ اللهِ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُ حَكُمْ إِلَى اللهِ عَنْ اللهِ وَأَخَذُ لَكَ مِنكُم مِيثَنَقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١،٢٠]..

والخلاصة والعبرة من مضامين هذه الآيات وتوجيهاتها، هي أن علاقات الزوجين، وحقوقها وواجباتها المتبادلة: المالية والجسدية والمعنوية، يجب أن تكون محكومة بهذه القيم الخلقية النبيلة، التي جمعها الفقهاء في اعتبارهم الزواح مبنيا على المكارمة والمسامحة والمروءة، لا على المشاحّة والمحاسبة والأنانية.

ومن هنا ندرك خطورة ذلك المسلك والمنزلق الذي تجر إليه بعض المفاهيم والدعوات «الحقوقية والتقدمية»، حين تتعامل مع العلاقات الزوجية، كتعاملها مع سائر العلاقات والحقوق والنزاعات المدنية والمالية والمهنية والنقابية والطبقية...، بحيث تشحنها بروح التحريض على المشاحّة والتنافس والصراع والغلبة.

فالزواج الذي يتحول إلى حلبة تنافس وصراع خير لـه أن ينتهي، أو ألا يكون أصلا، والزواج الذي لا ترفرف فوقه راية الأخلاق، لا قيمة له، بل لا بقاء له.

نموذج فقهي لاعتبار الأخلاق في فتاوى الزواج:

ويتعلق بمسألة «الزواج بنية الطلاق».

وهذه المسألة مفادها: أن يتزوج شخص وفي عزمه نية مضمرة بأنه سيطلق في وقت معين يستغني فيه عن هذا الزواج. ووقوع مثل هذا الزواج قديم. وكان أكثر ما يقع من رجال يرحلون بعيدا عن أهلهم وموطنهم، ويمكثون في الغربة زمنا طويلا، لأغراض تجارية ومهنية وغيرها، ولم يكن التزاور ولا أخذ الزوجة ميسورا. وهنا يحتاج المتغرب لأن يتزوج في بلد المهجر، لكن عند نهاية مقامه في مهجره، يطلق ويعود إلى زوجته في بلده، أو يعود ليتزوج في بلده.

ومن قديم وقع الاختلاف في هذا الزواج ومدى مشروعيته، والجمهور على صحته وجوازه، وهو مكروه أو محرم عند بعض الفقهاء.

أما اليوم فقد كثر هذا الزواج وكثرت أسبابه ودواعيه...

فممن يلجؤون إليه:

الطلبة المسلمون الذين يهاجرون - بمئات الآلاف - للدراسة في البلدان الغربية، ويمكثون هناك عدة سنوات.

ومنهم المهاجرون للعمل في هذه الدول، أو في دول إسلامية غير بلدهم، وهم بالملايين.

ومنهم موظفو البعثات الدبلوماسية والتجارية، وموظفو الشركات العالمية والمنظمات الدولية.

وهناك الموظفون المبتعثون للتدريب والتطوير في مختلف التخصصات.

فهؤلاء بعضهم يكونون عُزَّابا، وبعضهم يكونون متزوجين ولهم أبناء، ولكن ربها يصعب عليهم اصطحاب أزواجهم وأبنائهم، ثم العودة بهم بعد سنتين أو ثلاث، أو أقل أو أكثر. فلذلك يلجؤ البعض منهم إلى زواج عابر خاص بفترة الاغتراب، وهو «الزواج بنية الطلاق».

وفي هذا العصر سبق أن أفتى الشيخ عبد العزيز بن باز، وغيره من علماء السعودية، بجوازه وصحته، وأفتى آخرون بمنعه...

لكن هذا «الزواج» تطور في السنين الأخيرة حتى أصبح ظاهرة خليجية، وأصبح مطلوبا لذاته عند بعض الميسورين، حيث أصبحوا يسافرون أو يختلقون أسبابا للسفر، خصيصا لكي «يتزوجوا» لفترة من الزمن، ثم يعودون. فصرنا أمام: السفر بنية الزواج، ثم الزواج بنية الطلاق...، أو أمام «الزواج السياحي»، كما سماه

بعض الفقهاء.

ومن هنا بدأ يتزايد الإفتاء بمنعه وتحريمه، وبدأ القول بإباحته وسلامته يتراجع؛ وذلك بناء على ما فيه من غش وتدليس على المرأة المتزوَّج بها وعلى ذويها، وأيضا لما فيه من إهدار لروح الزواج ومقاصده ومسؤولياته.

ودون أن أطيل في بسط السجال الفقهي القديم والحديث في هذه المسألة، أكتفي بها ورد في فتويين معاصرتين، تعكسان التوجه الفقهي المتزايد نحو تحريم هذا الزواج، وتركزان خاصة على الاعتبارات الأخلاقية فيه، وذلك هو بيت القصيد عندنا.

الفتوى الأولى: لمركز الفتوى التابع لموقع الشبكة الإسلامية

ونصها: «الزواج بنية الطلاق: لا يخلو من حالتين: إما أن يَشترط في العقد بأنه يتزوجها لمدة شهر أو سنة، أو حتى تنتهي دراسته. فهذا نكاح متعة وهو حرام، والعقد فاسد.

وإما أن ينوي ذلك بدون أن يشترطه، فمذهب الجمهور عدم منعه. والمشهور من مذهب الحنابلة أنه حرام وأن العقد فاسد، لأنهم يقولون: إن المنوي كالمشروط، لقول النبي على الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى» متفق عليه، ولأن الرجل لو تزوج امرأة من شخص طلقها ثلاثا من أجل أن يحللها له ثم يطلقها فإن النكاح فاسد، وإن كان ذلك بغير شرط، لأن المنوي كالمشروط، فإذا كانت نية التحليل تفسد العقد، فكذلك نية المتعة تفسد العقد. هذا هو قول الحنابلة.

والقول الثاني لأهل العلم: أنه يصح أن يتزوج المرأة وفي نيته أن يطلقها إذا فارق البلد، كهؤلاء الغرباء الذين يذهبون إلى الدراسة ونحو ذلك. قالوا: لأن هذا لم يَشترط، والفرق بينه وبين المتعة أن المتعة إذا تم فيها الأجل حصل الفراق شاء الزوج أم أبى، بخلاف هذا فإنه يمكن أن يرغب في الزوجة، وتبقى عنده. وهذا

أحد القولين لشيخ الإسلام ابن تيمية. وهذا الكلام صحيح، من جهة أنه لا ينطبق عليه تعريف المتعة.

ولكن لقائل أن يقول: إنه محرم من جهة أنه غش للزوجة وأهلها، وقد حرم النبي على الغش والخداع. فإن الزوجة لو علمت بأن هذا الرجل لا يريد أن يتزوجها إلا لهذه المدة ما تزوجت به، وكذلك أهلها. كما أنه هو لا يرضى أن يتزوج ابنته شخص في نيته أن يطلقها إذا انتهت حاجته منها، فكيف يرضى لنفسه أن يعامل غيره بها لا يرضاه لنفسه؟ يقول النبي يك الا يؤمن أحدكم حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه متفق عليه. ومثل هذا الفعل غش وخداع وتغرير، ولأن فتح هذا الباب يترتب عليه مفاسد كبيرة، حيث إن أكثر الناس لا يمنعهم الهوى من تعدي محارم الله، وقد كرهه مالك على قال: إنه ليس من أخلاق المسلمين.

وعلى القول بالحرمة فلا فرق في الحكم بين المسلمة والنصرانية؛ فالغش حرام ومذموم في التعامل مع أي إنسان كان. والله أعلم (١).

الفتوى الثانية: للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث

ونصها: « ... فالعقد وإن كانت صورته صحيحة، ولكن الزوج آثم بغشه المرأة؛ وذلك لإضهاره نية الطلاق من حين العقد، والزواج في الإسلام يعني الديمومة والبقاء والاستقرار للحياة الزوجية، والطلاق طارئ بعد العقد. ولهذا السبب حرم الزواج المؤقت واعتبر فاسدًا. كذلك فإن الإيجاب والقبول في الزواج شرطان أساسيان فيه (٢)، والمرأة حين قبلته زوجًا فإنها كان مقصدُها حقيقة الزواج، ولو علمت أنه قبلها زوجة مؤقتة يطلقها متى شاء لرفضت ذلك، فإذا كان عازمًا

^{. (}http://fatwa.islamweb.net/fatwa)(\)

⁽٢) قلت: بل هما ركن الزواج.

الطلاق عند العقد أثَّر ذلك في صحة العقد، لأن المرأة بنت قبولها على غير ما أراد»(١).

بقي أن أضيف أن الذين يبيحون الزواج بنية الطلاق، يبنون ذلك على إثبات كونه مختلفا عن نكاح المتعة، المجمع على تحريمه عند أهل السنة؛ فهو ليس فيه تصريح بالتوقيت الذي يبقى مكتوما لدى الزوج، بينها زواج المتعة فيه تصريح بالتوقيت واتفاق عليه بين الطرفين. والحقيقة أن الزواج بنية الطلاق أسوأ من نكاح المتعة؛ لأنه في حقيقته زواج مؤقت، ثم فيه غش وخداع للمرأة المتزوَّج بها ولذويها. فهو أولى بالتحريم.

00000

[.] http://e-cfr.org/new/?fatwa(1)



الأخلاق والمقاصد

الأخلاق والضروريات الخمس:

تفكيري في أهمية الأخلاق وانشغالي بها ورغبتي في إنصافها، يرجع إلى أيام إعدادي لرسالة الماجستير في موضوع (نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي)، وذلك في أواخر الثمانينيات من القرن الميلادي المنصرم.

حينها كان من المواضيع التي اشتغلت بدراستها قضية الضروريات الخمس، وهل يمكن الزيادة عليها، كها أشار بعض الأصوليين المتقدمين، وكها يلح على ذلك بعض المفكرين والكتاب المعاصرين؟

كنت آنئذ قد انتهيت إلى أن مكانة «الأخلاق» ووظيفتها في الحياة، لا تقل أهمية ولا مكانة ولا ضرورة عن «الضروريات الخمس»، التي احتفي بها العلماء وعظموا شأنها، وعدُّوها - بإجماع تام - مدارَ الشريعة وعهادَها، بل مدارَ الشرائع المنزَّلة كلها. واستقر في نفسي أن «الأخلاق» تستحق بكل جدارة أن تضاف إلى الضروريات الخمس، سواء كانت السادسة أو قبل ذلك. وفكرت في التطرق إلى هذا الرأي وبيانه والدفاع عنه، ولكني أحجمت خشية أن يكون ذلك مقحها على الموضوع الأصلي للكتاب، المخصص للإمام الشاطبي ونظريته. وقلت: إذن أكتب فيه إن شاء الله بشكل مستقل ومستوف.

لكن مع مرور الوقت لم أعد متحمسا لإلحاق الأخلاق بالضروريات الخمس، رغم أن أهميتها وضرورتها لم تنقص في نظري، وإنها هي تزيد كلها تأملت فيها أو درست جانبا منها. وسبب هذا العدول هو تغير موقفي من الضروريات الخمس و «مسألة حصرها أو الزيادة فيها». فالذي استقر عليه الأمر عندي هو أن «الضروريات الخمس» لا مزيد عليها إذا فهمت على ما أراده بها القدماء، وهو أنها

تعني المصالح الاضطرارية الأساسية، التي لا تقوم بدونها حياة دنيوية ولا أخروية، وأن فقدانها مفض حتما إلى الهلاك والخراب.

وعليه أصبحت أرى الإبقاء على حصر هذه «الضروريات الخمس» على ما انتهى إليه علماؤنا السابقون، والإبقاء على اصطلاحهم بلفظه وعدده ومعناه.

لكن بالمقابل، لا شيء يمنعنا من الحديث عن ضروريات أخرى، منفردة أو مجتمعة، مما له شأن وخطر في مجمل الحياة البشرية؛ كالأخلاق، والعدل، والأمن، والحرية، وكرامة الإنسان (١)...وأن نعطيها من التعظيم والعناية والرعاية ما تستحقه شرعا وواقعا.

الأخلاق مقاصد كليت للشريعة:

من أبرز المقاصد العامة الكلية للشريعة ولِبعث الرسل والأنبياء: تزكيةُ الناس في نفوسهم وسلوكهم. وقد جاء هذا المعنى صريحا في مواضع عديدة من الذكر الحكيم، كها نقرأ في هذه الآيات:

- ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَنتِكَ وَيُعَلِمُهُمُ ٱلْكِئَلَبَ وَٱلْهِكُمَةَ وَيُزَكِّبِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩]..
- ﴿ كَمَا آرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ مَايَدْيَنَا وَيُزَكِيكُمْ
 وَيُعَلِمُكُمُ ٱلْكِنَبَ وَالْفِحْمَةَ وَيُعَلِمُكُم مَّالَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١]..
- ﴿ لَقَدْ مَنَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتَلُوا عَلَيْهِمْ عَاينتِهِ، وَيُزَكِيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِنْكِ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]..

⁽١) فهذه أيضا «ضروريات خس»، قد تماثل وتضاهي الضروريات الخمس المعروفة. ولكن إذا نظرنا إلى معنى «الضرورة»، فهي دونها في الدرجة...

﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِي ٱلْأُمِيَّانَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَشْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَنْدِهِ وَرُزَكِيمِمْ وَرُعَلِمُهُمُ ٱلْكِئنَبَ وَالْخِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِنْ فَاللَّهِ مِنْ اللَّهِ مَا الْكِئنَبَ وَالْجَمعة: ٢]..

قال العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي خلاف: « ذكر الله تعالى مقاصد البعثة المحمدية الرئيسية وفوائدها الأساسية في عدة آيات من القرآن الكريم...- يقصد الآيات الأربع السابقة – ثم قال: «ومهمة تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس تشغل مكانا كبيرا في دائرة الدعوة النبوية ومقاصد البعثة المحمدية» (١).

قلت: وهذا شأن الرسل جميعا كما هو معلوم، وهو واضح من دعاء إبراهيم ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وكما هو واضح في قوله تعالى ﴿قَدَّأَنْلُحَ مَن تَرَكَّى ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ هَنذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَى ﴿ يَا صُحُفِ إِبْرَهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

[الأعلى:١٩،١٨]

فكل الأخلاق الحميدة الزكية التي جاء بها الرسل، هي من جملة المقاصد والمصالح الكلية المطلوب تحقيقها وإقامتها في الذوات والصفات والأعيان والأفعال. قال الإمام ابن تيمية: «وكذلك فيها شرعه الشارع من الوفاء بالعهود، وصلة الأرحام، وحقوق المهاليك والجيران، وحقوق المسلمين بعضهم على بعض، وغير ذلك من أنواع ما أمر به ونهى عنه حفظا للأحوال السنية وتهذيب الأخلاق، ويتبين أن هذا جزء من أجزاء ما جاءت به الشريعة من المصالح»(٢).

非非殊非非

⁽١) العقيدة والعبادة والسلوك ص ١٣٤.

⁽۲) مجموع الفتاوي (۳۲/ ۲۳۶)

الأخلاق في المجال الطبي

الأخلاق في المجال الطبي

إذا كانت بجالات الحياة كلَّها تحتاج إلى الأخلاق، وتستقيم وترتقي بالأخلاق، فإن العمل الطبي هو في أصله وجوهره عمل أخلاقي، ولا تقوم له قائمة إلا بالأخلاق. وإذا كان علماء الشرع يقولون: «الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين»، فعلى علماء الطب أن يقولوا لبعضهم: «الطب كله علق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الطب». وإذا كان مقام الطبيب ومكانته يتحققان ويقدران بحسب ما له من علم وخبرة وتجربة ومهارة، فإن النجاح القعلي في ذلك كله يتوقف على مقدار ما له من عاسن الأخلاق؛ من رأفة ورحة وشفقة، ومن رقة ورفق ولين، ومن صبر وأناة وتواضع...

مقاصد الشرع ومقاصد الطب:

من المعلوم أن مقاصد الشرع مدارها على حفظ (١) الضروريات الخمس؛ وهي الدين والنفس والنسل والعقل والمال.

ولو أردنا أن نتحدث عن مقاصد الطب لوجدنا أنها لا تخرج عن حفظ النفس والنسل والعقل. فهي تشترك مع مقاصد الشرع في ثلاثة من خمسة.. ثم نجد أن حفظ هذه الضروريات الثلاث المشتركة يساعد على حفظ الدين والمال. وعلى هذا فمقاصد الطب مندرجة في مقاصد الشرع متلاحمة معها إلى حد كبير. ومعلوم أن حفظ النفوس - سواء في الشرع أو في الطب - لا يقف عند الحفظ المادي، بل

⁽١) حفظ الضروريات وغيرها من المصالح ليس محتصورا - كما يتوهم بعض الناس - في الصيانة والحياية لما هو موجود منها، وهو ما يسميه العلماء بالحفظ العدمي، بل هو - أولا - السعي إلى إيجادها وإقامتها وتنميتها وتوفير كافة الأسباب المؤدية لذلك. وهو ما يسميه العلماء بالحفظ الوجودي. فما من وحفظ إلا وله وجهان: وجودي أولا، وعدمي ثانيا.

يشمل الحفظ المعنوي، بها يعنيه من سلامة وصحة وتوازن في الحالة النفسية. ثم يتقدم الشرع -فينفرد أو يكاد - بحفظه للصحة والعافية الروحية للإنسان. ولذلك نجد علهاءنا يقررون أن «الشرع هو الطبيب الأعظم» (۱). المهم أن مقاصد الشرع ومقاصد الطب تلتقي في أن الموضوع هو الإنسان، وأن الغرض هو الصحة البدنية والنفسية والعقلية للإنسان، وأن الغاية هي سعادة الإنسان. رسالة الطب هي نشر الشفاء والرحمة، ورسالة الدين هي نشر الشفاء الأوسع والرحمة الأعم. ﴿ وَنُنزِّلُ مِنَ الْمُورَى مَا هُورِشَاقَ * وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].. فالسشفاء والرحمة مقصدان مشتركان بين الرسالتين الطبية والشرعية، وإن تفاوتت الساحة والمساحة بينها....

ولعلهاء الشريعة تعبير آخر يختصر مقاصد الشريعة وضرورياتها في كلمتين جماء حفظ الأديان، وحفظ الأبدان. فمصالح الخلق مدارها على حفظ الأديان وحفظ الأبدان. وأساس السعادتين (الدنيوية والأخروية) حفظ الأديان وحفظ الأبدان. وعمدة الثقافات والحضارات حفظ الأديان وحفظ الأبدان. وأساس كل تنمية وترقية حفظ الأديان وحفظ الأبدان.

وعادة ما يتوقف المفسرون للتنبيه على المغزى فيها تضمنه قوله تعالى ﴿ هُو اللَّذِى فيها تضمنه قوله تعالى ﴿ هُو اللَّذِى فيها تضمنه قوله تعالى ﴿ هُو اللَّذِى عُرِيكُمْ مَا يَنْزِلُ لَكُمْ مِن السَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]، حيث تم الجمع والربط بين آيات الله ومعجزاته الدالة عليه وعلى رسله من جهة، وبين الامتنان بإنزال الرزق من السهاء من جهة أخرى. وسر ذلك عندهم هو أن هذين الأمرين يشكلان جماع مقاصد الشرائع؛ فأحدهما فيه حفظ الأديان، والآخر فيه حفظ الأرزاق والأبدان.

قال الفخر الرازي: «واعلم أن أهم المهات رعاية مصالح الأديان ومصالح

⁽١) الموافقات للشاطبي - (٣/ ١٤)

الأبدان، فهو سبحانه وتعالى راعى مصالح أديان العباد بإظهار البينات والآيات، وراعى مصالح أبدانهم بإنزال الرزق من السهاء. فموقع الآيات من الأديان كموقع الأرزاق من الأبدان. فالآيات لحياة الأديان، والأرزاق لحياة الأبدان. وعند حصولها يحصل الإنعام على أقوى الاعتبارات وأكمل الجهات»(١).

ونقرأ في تفسير القرطبي قوله: «قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ ءَايَنتِهِ > ﴾ أي دلائل توحيده وقدرته ، ﴿ وَيُنَزِّئُ لَكُمُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾ جمع بين إظهار الآيات وإنزال الرزق؛ لأن بالآيات قوامَ الأديان، وبالرزق قوام الأبدان» (٢).

وقد استقر في الثقافة الدينية - الإسلامية وغيرها - أن العلوم كلها تتمحور حول حفظ الأديان وحفظ الأبدان، مع العلم أن جزءا كبيرا من الأديان محصص مباشرة لحفظ الأبدان...

ويروى أن الخليفة العباسي هارون الرشيد «كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان. فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا. فقال له: ما هي؟ قال قوله على: ﴿وَكُلُوا وَالْمَرَ وُالْا لَكُمْ رُوا اللهُ عَلَيْ الطب في الفاط يو وَلا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب، فقال على: جمع رسول الله على الطب في ألفاظ يسيرة. قال: ما هي؟ قال: «المعدة بيت الأدواء والجمية رأس كل دواء، وأعط كل جسد ما عودته». فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا» (٣)

⁽۱) مضاتيح الغيب (٢٧/ ٣٨) - نشر دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م

⁽٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٩٩) تحقيق هشام سمير البخاري - الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية - ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م .

⁽٣) تفسير القرطبي (٧/ ١٩٢)

ومن القواعد المعروفة في الفقه ومقاصد الشريعة، قاعدة «تقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة». وفي تطبيقات هذه القاعدة نجد الاقتران والمقارنة بين حفظ مقاصد الطب وحفظ مقاصد الشرع، أو بين حفظ الأبدان وحفظ الأديان، حيث يقرر الفقهاء وجوب الحجر على الفقيه الماجن، وعلى الطبيب الجاهل، لكون الأول يفسد الأديان، والثاني يفسد الأبدان. ولذلك قيل: "يُفسد الأديان نصفُ متفقه، ويفسد الأبدان نصفُ متطبب».

والذي أراه أن الطبيب الذي لا خَلاق له، مهما كان علمه بالطب ودرجته فيه، يكون أشد خطرا وضررا على الناس من الطبيب الجاهل. وإذا كان الطبيب الجاهل يحجر عليه، فإن الطبيب الفاسد ينبغي ان ينكل به.

ولكي ندخل أكثر في المقاصد الخلقية للشريعة، وخاصة منها ما هو أكثر التصاقا بالعمل الطبي وأبلغ أثرا فيه، أتناول في الصفحات الآتية أصلين كبيرين من أصول الأخلاق الإسلامية، وهما:

- خُلُق التقوى،
- وخُلُق الرحمة.

وسيظهر جليا ما يتفرع عن هذين الأصلين من أخلاق ذات أثر بليغ في السلوك البشري عامة، وفي سلوك الطبيب والمعالج بصفة خاصة.

أولا: التقوى منبع الأخلاق:

سواء تعلق الأمر بالمجال الطبي أو بغيره من المجالات الدينية والدنيوية، بحفظ الأديان أو بحفظ الأبدان، فإن خُلُقَ التقوى يحتل مكان المركز والمنبع لسائر الأخلاق. وهذا ما صرح به عدد من العلماء، كما في قول ابن عاشور: «جماع مكارم الأخلاق يعود إلى التقوى»(١).

⁽١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور ص٢٠٧، دار النفائس بالأردن - (١) أحدد ١٠١١ . ٢٠٠١.

في حقيقة التقوى؟ وما هي مكانتها وآثارها السلوكية؟ ماهمة التقوي...

التقوى في اللغة من الاتقاء والوقاية . «والوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال: وَقَيْتُ الشيء أَقيه وقاية ووقاء » (١)، ومنه قوله تعالى ﴿ فَوَقَنْهُمُ اللَّهُ مَرَّذَاكِ ٱلْمُؤمِدِ ﴾ [الإنسان: ١١] وقوله: ﴿ وَوَقَنْهُمُ عَذَابَ ٱلْمُحِيمِ ﴾ [الدخان: ٥٦]..

وقيل: الوقاية «هي فَرْط الصيانة وشدة الاحتراس من المكروه. وأصل الاتقاء الحَجْرُ بين شيئين، ومنه يقال (اتقى بـتُرسه). وفي الحديث: «كنا إذا احمَرَّ البأسُ اتّقَيْنا برسول الله ﷺ (٢).

قال الراغب الأصفهاني / ٣ ملخصا المعنى اللغوي للتقوى: «والتقوى جعلُ النفسِ في وقاية مما يُخاف. هذا تحقيقه. ثم يسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفا، حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه، والمقتضي بمقتضاه »(٣).

والتقوى في استعمالات الشرع تعبر عن حالة خلقية، قلبية نفسية، تجعل صاحبها مرهف الشعور بالمسؤولية ومحاسبة النفس، مقدرا لعواقب الأفعال وآثارها، فيتصرف بناء على ذلك، من تلقاء نفسه، سواء تعلق ذلك بنفسه، أو بربه، أو بأي كان من خَلْق الله.

فالشخص المتقي: يستشعر مدى فضل الله ونعمه عليه فيتقيه، وهو يَهَابُ ربه ويخاف مقامه فيتقيه، وهو يستحيي من ربه الذي يراه - وقد أمره ونهاه - فيتقيه،

⁽١) المفردات للراغب ٢/ ٦٨٨.

⁽٢) رواه مسلم ٣/ ١٤٠١ (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب ﴿ ورواه أحمد ٢/ ٤٥٣ - ٤٥٤ (١٣٤٧)؛ والنسائي في الكبرى ٨/ ٣٤ (٨٥٨٥) من حديث علي ﴿ الله على الله على الله على الله على الله على الله على ال

⁽٣) المفردات للراغب ٢/ ٦٨٨.

وهو يخاف غضب الله وعقابه فيتقيه. وهو يرى ويدرك قبح الأفعال السيئة وعواقبها عليه أو على غيره، فيعتبر بها ويتعظ منها فيتقيها ...

فالتقوى انضباط وارتقاء ذاتيان، كها قال عمر بن عبد العزيز « التقيُّ ملجَم، لا يفعل كل ما يريد » (١)، لكنه ملجم بتقواه، بإرادته واختياره وحسن تقديره . كها قال طلق بن حبيب عَظْفَه: «التقوى العمل بطاعة الله على نور من الله، رجاء رحمة الله. والتقوى ترك معاصي الله على نور من الله، مخافة عذاب الله »(٢).

والتقوى يقظة وتبصر وحذر، في كافة التصرفات والحركات والخطوات. كما نبه على ذلك أبو هريرة هي، حين جاءه رجل يسأله عن معنى التقوى، فقال له: «هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيتُ الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه. قال: ذاك التقوى » (٣).

التقوى في القرآن والسنة:

النصوص الشرعية المتعلقة بخُلُق التقوى غزيرة ومتنوعة، وخاصة في القرآن الكريم . وهي كلها تعكس ما سبق ذكره من كون التقوى قضية مركزية ومحورية في الإسلام وشريعته. بل هي كذلك في دعوات كافة الأنبياء والمرسلين، مثلها نجد في النص الأول من النصوص القرآنية التالية:

١ - قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ وقد جاءت هذه الآية بلفظها على لسان

⁽۱) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٦٣ (٥٧٨٨)؛ والزهد الكبير لـه ٣٥٧ (٩٢٥) (٩٢٩)؛ والبغوي في شرح السنة ١٤/ ٣٤١.

⁽٢) رواه/ ابن المبارك في الزهد والرقائق ٤٧٣ - ٤٧٤ (١٣٤٣)؛ وابن أبي شيبة في المصنف ١٥ / ٩٩ ٥ (٣٩٩٣)، ١٩ / ٣٥٧ (٣٦٣٠٨)؛ وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٦٤ (٢٠٩)؛ والبيهقي في الزهد الكبير ٣٦٧ (٣٦٣).

⁽٣) رواه البيهقي في الزهد الكبير: ٣٦٧.

عدد من المرسلين، في سورة آل عمران (٥٠) وسورة الشعراء (١١٠،١٠٨ ، ١١٠، ١٢٦) . وهذا معناه أن (١٣٠) هي مقصد مشترك وقاعدة ثابتة في جميع الشرائع المنزلة .

٣ - قوله جل وعلا: ﴿ وَتَكَزَوْدُواْ فَالِحَ خَيْرَ ٱلنَّادِ ٱلنَّقْوَىٰ وَٱتَقُونِ يَتَأُولِى ٱلْإِرْ وَٱلنَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢] وقوله: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِ وَٱلنَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢] وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهِ مَا لَكُرْمَكُمْ عِندَاللَّهِ أَنْقَدَكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومن جوامع السنة النبوية في الباب:

١ عن أبي ذَرِّ هَ قال، قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثها كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» (١).

٢ ـ وعن أبي هريرة ه قال: «سُئِل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدْخِل النّاسَ النارَ فقال: «تقوى الله وحُسنُ الحُلق». وسُئِل عن أكثر ما يُدْخِل الناسَ النارَ فقال:

⁽۱) رواه أحمد ٣٦ / ٣٨٠ - ٣٨١ (٢٢٠٥٩)؛ والترممذي ٤/ ٣٥٥ - ٣٥٦ (١٩٨٧)، وقعال: حديث حسن صحيح.

الفَم والفرْج^{ه(١)}.

٣ - في حديث طويل عن أبي ذر ﷺ قال، قلت يا رسول الله أوصني، قال:
 «أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس الأمر كله» (٢).

فاعلية التقوى وآثارها:

التقوى ـ كما تقدم ـ تنبعث من رقابة ذاتية يهارسها كل واحد على تفسه ومن داخل نفسه ـ ولذلك فهي حاضرة مع صاحبها في كل وقت وحين . فالإنسان في حياته يمكن أن يغيب عن الناس ويغيب عنه الناس، فيتخلص من رقابتهم ومحاسبتهم ولومهم وضغطهم، ويمكن أن يكون مقامه فوق الناس، بسلطانه وسطوته، أو بعلمه ومرتبته، أو بجاهِه ومنصبه، ولكن تقواه - إن كان من أهل التقوى - تظل حاضرة معه رقيبة عليه موجهة لسلوكه، في سره كما في علنه، وفي سفره كما في حضره، وفي ليله كما في خاره، وفي انفراده بنفسه كما في اجتماعه مع غيره.

وقد كان رسول الله على يوصي المسافرين خاصة بتقوى الله، لأن المسافر ذاهب إلى حيث لا يعرفه أحد، وربها مر من حيث لا يراه أحد. فهو بحاجة أكثر إلى استصحاب تقواه وإلى إعهال تقواه . عن أنس ش قال: جاء رجل إلى النبي على فقال يا رسول الله، إني أريد سفرا فزودني . قال: زودك الله التقوى ... الحديث (٣) . وعن أبي هريرة قال: أراد رجل سفرا فأتى النبي على خقال: أوصني، فقال: «أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شَرَف» (١٤) .

⁽١) رواه الترمذي ٤/ ٣٦٣ (٤٠٠٤)؛ وابن ماجه ٢/ ١٤١٨ (٤٢٤٦)؛ وقال الترمذي: حديث صحيح غريب.

⁽٢) رواه ابن حبان في صحيحه ٢/ ٧٨ (٣٦١)؛ وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٦٨.

⁽٣) رواه الترمذي ٥٠٠٥ (٣٤٤٤)؛ والحاكم ٢/٧٠١ (٢٤٧٧)؛ وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

⁽٤) رواه أحميد ١٤/ ٦٢ (٨٣١٠)، ١١٧ (٨٣٨٥)، ١٥/ ٤٥١ (٩٧٢٤)؛ والترميذي ٥/ ٥٠٠ =

والتقوى يُحتاج إليها أكثر في المواطن الصعبة، كمَواطن الحب والبغض، والغضب والطمع، والهوى والشهوة، والعداوة والخصومة... وفي قصة الثلاثة الذين انسد عليهم الغار، فتوسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة، نماذج بليغة من آثار التقوى، في مواطن لا ينفع فيها شيء سوى التقوى، وهذه قصتهم كما وردت في الحديث الصحيح.

عن عبد الله بن عمر عنى رسول الله والله والله والله والله والله والله والله والله فارد الله والله والدان شيخان الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم . فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم . فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران وامرأي، ولي صِبْية صغار أرعى عليهم، فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالذيّ فسقيتها قبل بَنيّ، وأنه نأى بي ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت، فوجدتها قد ناما . فحلبت كها كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسها أكره أن أوقظها من نومها، وأكره أن أسقي الصبية قبلها، والصبية يتضاغون عند قدميّ. فلم يزل ذلك دأي ودأبَهم حتى طلع الفجر . فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السهاء . ففرج الله منها فرجة فرأوا السهاء . وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بهائة دينار . فتعبت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها . فلها وقعتُ بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم فرجة، ففرج لهم . وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرزً (١٠)، فلها فرجة ، ففرج لهم . وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرزً (١٠)، فلها فرجة ، ففرج لهم . وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرزً (١٠)، فلها فرجة ، ففرج لهم . وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرزً (١٠)، فلها فرجة ، ففرج لهم . وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرزً (١٠)، فلها

^{= (}٣٤٤٥)؛ والنــسائي في الكــبرى ٩/ ١٨٨ (١٠٢٦٦)؛ وابــن ماجــه ٢/ ٩٢٦ (٢٧٧١)؛ وقــال الترمذي: حديث حسن.

⁽١) الفرق، بفتح الراء وتسكينها، إناء يعادل ثلاثة آصع. والمراد أنه يعطيهم أجرتهم بمقدار من الرز.

قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه. فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها. فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي، قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعاءها فخذها. قال: اتق الله ولا تستهزئ بي. فقلت: إني لا أستهزئ بك خذ ذلك البقر ورعاءها. فأخذه فذهب به. فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي، ففرج الله ما بقي (١).

فهذه ثلاثة نهاذج من أرقى وأتقى ما يتصور من السلوك البشري ومن السمو البشري. وكلهم فعلوا ما فعلوا من دون رقيب ولا حسيب من الناس، وبدون خوف ولا حرج من أحد. ولم يحوجوا أحدا إلى الدخول معهم في خصومات أو منازعات، ولم يشغلوا شرطيا ولا قاضيا ولا واليا. وإنها من تلقاء أنفسهم: اتقوا فارتقوا ...

- فالأول تحمل الصبر والسهر، وتحمل معاناة صبيته وتصبيرهم، وهو في ذلك داخلَ بيته وفي جوف ليله، لن يلومه أحد إن لم يفعل، ولن يشكر لـه أحـد إن فعـل . وحتى والداه ناما، ولم يبق منهما انتظار ولا تطلع إلى شيء . ومع ذلك فإنه ظل وفـيًّا لبره وإحسانه، ورَعًا وتقوى وإخلاصا.

- والثاني مكث مدة طويلة يمني نفسه ويشهيها، ويجتهد ويتعب لنيل مبتغاه من محبوبته وفاتِنتِه، إلى أن ظفر بها وتمكن منها بلا حائل ولا مانع. لكنه في اللحظة الحرجة جاءه نداء التقوى: «يا عبد الله اتق الله ». فنزع نفسه وقام تاركا شهوته بعد أن امتلكها وأمسك بها، وترك حتى المال الذي جمعه...

- وأما الثالث، فكان متصرفه أتقى وأرقى وأعجب مما سبق، لأن العمل الذي قام به، لم يكن صبر ليلة، أو تقوى ساعة، وإنها هو عمل سنين وصبر سنين وتقوى سنين . وواضح أن العامل صاحب الحق، حين جاء يطلب حقه الأصلي، وهو في أصله شيء يسير من الأرز، كان يتوقع جحودا أو نسيانا، أو مشاحة أو هزءا .

⁽١) رواه البخاري ٣/ ٧٩ (٢٢١٥) وفي مواضع أخرى؛ ومسلم ٤/ ٢٠٩٦–٢١٠٠ (٢٧٤٣) واللفظ له.

فلذلك توسل إلى صاحبه بتقوى الله، وبادره بالقول: اتق الله ولا تظلمني حقى . ثم قال بعد أن سمع ما سمع: اتق الله ولا تستهزئ بي...

لكنه فو جيم بأن تقوى صاحبه فوق ما كان يرجو، بل فوق ما كان يتخيل.

فلو أن الناس يتصر فون ويتعاملون على نحو هذا، وحتى بقليل من هذا، لوفروا على أنفسهم وعلى بعضهم ما لا يحصى من المشاكل والمتاعب، ومن النزاعات والخصومات، ومن الأوقات والنفقات، ولجلبوا لأنفسهم ومجتمعاتهم ما لا يحصى من المكاسب والمصالح والخيرات ﴿وَلَوْأَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَيَّةَ المَنُواْ وَأَتَّقُواْ لَفَنَحْنَا عَلَيْهم بَرّكنتِ مِّنَ السَّكَالَةِ وَأَلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦]..

وإذا ظهرت معاني التقوى وآثارها الإيجابية الشاملة على سلوك الإنسان في كلم. أحواله، فلا شك أن أحوج الناس إلى التحلي الدائم بخلق التقوي ومقتضياتها، هو مَن يضع الناسُ أرواحهم وأبدانهم وأسرارهم وأعراضهم أمانةً بين يديه. إن ما يمكن أن يقدمه ويحققه الطبيب التقيى بتقواه وإخلاصه،من حفظ لأرواح الناس وأبدانهم، وتخفيف لآلامهم ومعاناتهم، وتوفير لأموالهم وحهو دهم، لا يقل حجيا ولا أهمية عما يقدمه من ذلك بعلمه وحنكته. فالطبيب التقى - بفضل تقواه وأمانته - يصبح رقيبَ نفسه وحسيبَ نفسه، فيستقيم باطنه وسِرُّهُ، قبل ظاهره وجَهْره. فنزاهةُ الطبيب التقى وأمانته لا تتوقف على القسم الطبي، مثلها أن نزاهة الحاكم التقى وأمانته لا تتوقف على القسم الدستوري. وأما من حُرم فضيلة التقوي وتركُ محاسبةً نفسه بنفسه، فلا ينفع معه قسم يوناني ولا إسلامي.

ثانيا: الطب والشرع رأفة ورحمة:

من الأخلاق التي لا يستقيم بدونها شرع ولا طب: خُلُق الرحمة. وقد لخص بعض العلماء تكاليف الشرع ومقاصدَه كلها في كلمتين هما: «تعظيم الحق، والشفقة على الخلق».

77

فها هي هذه الرحمة التي تجسد وتضم نصف الديانة ونصف مقاصدها؟ - من حيث المعاني اللغوية:

الرَّحْمَةُ والمَرحَمة، تعني: الرِقَّة، والمَغْفِرَة، والتَّعَطُّف، والحنان (١). ومن الألفاظ الأكثر قربا من معنى الرحمة، لفظ الرأفة.

ومن اللغويين من يجعل الرأفة والرحمة شيئا واحدا، كما قال في المحيط: الرَّأْفَةُ: الرَّحْمَةُ (٢) ومنهم من يجعل الرأفة أخص من الرحمة «الرَّأْفَةُ: أَشَدُّ الرَّحْمَةِ، أو أَرَقُّها» (٣) وفي (الصحاح): «والرَّأْفَةُ أَرَقُّ من الرحمة، ولا تكاد تقع في الكراهة، والرحمةُ قد تقع في الكراهة والرحمةُ قد تقع في الكراهة للمَصْلحةِ» (٤) ، يعني أن الرحمة قد تكون حتى في فعل شيء يكرهه الشخص المرحوم ويتأذى منه ولو أن له فيه مصلحة، كما في الإلزام بالأدوية وبالعلاجات الطبية المؤلمة، بينها الرأفة لا تكاد تستعمل في هذا المقام.

والتفريق بين اللفظين هو الأوفق لدلالة الاستعمال القرآني، الذي جمع بين اللفظين، وعطف الرحمة على الرأفة، في عدة مواضع منه، والعطف يقتضي المغايرة. قال تعالى: ﴿ وَقَفَيَّنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْبَدَ وَءَاتَيْنَكُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱبَعُوهُ وَأَنكَ وَرَحْمَلُنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱبَعُوهُ وَأَنكَ اللهُ اللهُ

[البقرة:١٤٣، والحج:٦٥]

قال ابن عاشور: «والرأفة: الرحمة المتعلقة بدفع الأذى والضرّ، فهي رحمة خاصة ...فعطفُ الرحمة على الرأفة، مِنْ عطف العام على الخاص، لاستيعاب أنواعه

⁽١) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي ٣/ ٢٢٩، الصحاح في اللغة للجوهري ١/ ٢٤٧، لسان العرب لابن منظور ١٢/ ٢٣٠، المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ١/ ١٥٩.

⁽٢) المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ٢/ ٤٣٦.

⁽٣) القاموس المحيط للفروز آبادي ٢/ ٣٨١.

⁽٤) لسان العرب لاين منظور ٩/١١٢.

بعد أن اهتم ببعضها»(١).

وإجمالا يمكن القول: إن معنى الرحمة يشتمل على معانى: الرقة، والرأفة، والعطف، والحنان، والمغفرة، والشفقة، والمودة، وما يتبع ذلك من دفع ضر أو أذى، أو جلب نفع، أو إسداء نصح، أو دفع ألم، أو تخفيفه، أو تقديم مساعدة أيا كانت ... ويشتمل كذلك على نفي أضداد هذه الصفات، مثل القسوة والشدة والغلظة والإذاية ...

- وأما المعاني الشرعية للرحمة، فهي تستوعب وتتضمن جميع المعاني اللغوية المذكورة، ثم تزيد عليها معاني ومجالات جديدة أعمق وأرحب. وفي الفقرات التالية أقدم بعض الإشارات التي تكشف لنا أن الرحمة التي جاءت بها الشريعة هي أعمق وأوسع مما نتصور، وأنها منهج حياة ومنهج سلوك، وأن من تخلق بالرحمة فقد فاز فوزا عظيها، ومن فقدها فقد خسر خسرانا مبينا.

فمن ذلك أن معاني الرحمة قد بثت وضُمّنت فيها نعرفه ونذكره من أسهاء الله تعالى وصفاته، لينهل منها الناس ويقتبسوا من إيحاءاتها. وسأوضح شيئا من ذلك بعد قليل بعون الله تعالى.

ومنها الرحمةُ بمعانيها وآثارها الدينية والأخروية، كالهداية والتوبة والمغفرة والتسبب إلى دخول الجنة والنجاة من النار. فمن جلب من ذلك شيئا لنفسه أو لغيره، فهي رحمة ما بعدها رحمة.

ومنها الرحمة المضمنة في صلة الرحم، والرحمة بمعنى المصلحة، المنضوية في كافة الأحكام الشرعية...

ومنها الرحمة الظاهرة في كافة أعهال البر والإحسان والنجدة والإغاثة

⁽١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٤/٣٤٤.

والمواساة، وخاصة للضعفاء والمرضى والمصابين. وهنا تطالعنا صورة الطبيب، باعتباره أرحم الخلق بالخلق، أو هكذا يُفترض فيه.

وباختصار جامع، نستطيع أن نقول: حيثها كانت الرأفة والرحمة والشفقة، فثم شرع الله ورضاه وثوابه. وحيثها كانت الغلظة والفظاظة والقسوة، فثم خروج عن شرع الله ودخول في سخطه وتعرضٌ لعقابه.

ـ الرحمة في أسماء الله وصفاته:

الرحمة وما يندرج فيها ـ أو يتداخل معها ـ من المعاني التي ذكرتها، هي أوسع المعاني المضمنة في أسهاء الله تعالى وصفاته . بل لا شك أن رحمة الله تعالى موجود معناها في كل أسهاء الله وصفاته . ولكننا نعني الآن ـ خاصة ـ الأسهاء المعبرة عن معاني الرحمة، بشكل ظاهر ومباشر.

- من هذه الأسياء وفي مقدمتها، الاسيان الشهيران من أسياء الله تعالى: (الرحمن الرحيم). وهما أكثر أسياء الله ذكرا في حياة المسلم، لأنهيا موجودان في البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم)، وفي الفاتحة (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم). ولست أريد البحث في معاني الاسمين الشريفين وما قيل في التفريق الرحيم)، ولست أريد البحث في معاني الاسمين الشريفين وما قيل في التفريق بينهها، ولكني أقول إجمالا: إنها معا قد جمعا كل معاني الرحمة الإلهية، الممتدة في الدنيا والآخرة. وهي الرحمة التي قال عنها الله - سبحانه - ﴿وَرَحَمَةِ وَسِعَتَكُلُّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥]، وقالت عنها ملائكة الرحمن: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلُ شَيْءٍ الله عنها ملائكة الرحمن: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلُ شَيْءٍ الله الله عنها على نفسه وضينها لخلقه ﴿ قُل لِمَن مَا فِي السَمَوْتِ وَالْأَرْضِ قُل لِلْهَ كُنْبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمة ﴾ [الأنعام: ١٢].

فكل هذه الرحمة الشاملة واللامحدودة، مضمنة في دلالة الاسمين الجليلين:

الرحمن الرحيم.

على أن مما ينبغي تقريره، أن هذه الرحمة الشاملة اللامحدودة، التي كتبها الله على نفسه، والتي وسعت كل شيء، منها ما هو عام يعطَى لجميع الناس، بل لجميع الخلائق، بسبب وبدون سبب، بطلب وبدون طلب، ومنها ما هو خاص بأهله متوقف على أسبابه . فإذا كان القرآن رحمة، فهي لا شك لمن يؤمنون به ويتلونه ويتبعون ما فيه . وإذا كانت شريعة الله رحمة، فهي لمن يعملون بها، وإذا كانت توبة الله ومغفرته رحمة، فهي لمن يعملون بها، وإذا كانت توبة

ـ ومن أسهاء الله الدالة على الرحمة، اسم (الرؤوف)، الذي يأتي مقترنا مع اسم الرحيم، كها تقدم قريبا . وقد رأينا العلاقة والفرق بين الرأفة والرحمة.

- ومنها اسم (التواب)، وقريب منه اسم (الغفور)، وهما - أيضًا - من الأسماء الحسنى التي يكثر ورودها في القرآن الكريم مقترنة مع اسم (الرحيم) . أذكر من ذلك الآيات الكريمات:

- ﴿ فَنَلَقَّ عَادَمُ مِن رَّبِهِ عَكِمَنتِ فَنَابَ عَلَيْهُ إِنَّهُ مُواللَّوَابُ أَلَّ عِيمُ ﴾ [البقرة:٣٧].
- ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلْمُوا أَنفُسَهُمْ جَا أَوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَ عَلَى اللهِ عَلَى النَّسَاء: ٦٤].
- ﴿ ﴿ نَبِي عَبَادِى أَنِي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيدُ ﴿ وَأَنَّ عَدَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلأَلِيدُ ﴾
 [الحجر: ٤٩: ٥٠].
- ﴿ وَإِذَا جَآهَ كَ ٱلَّذِينَ يُوْمِنُونَ بِعَايَلِتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كُتَبُ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
 ٱلرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوّةُ البِحَهَلَةِ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ عَفُورٌ رُحِيدٌ ﴾ .
 الأنعام: ٥٤]

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَيِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ مَابُواْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِ هَالْغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١١٩].

واسم (الحنَّان) من الأسماء الأكثر قربا وشبها باسم (الرحيم). قال البيهقي في الأسماء والصفات: «وَمِنْهَا: الحنان. قال الحليميُّ: وهو الواسع الرحمة»(٣).

ونقل عن ابن الأعرابي قوله: «الحنان من صفات الله الرحيم، والحنَانُ، مخففا: العطف والرحمة والرزق والبركة»(٤).

ومن الأسماء الأخرى، الدالة دلالة ظاهرة على صفة الرحمة في أسمائه تعالى: الغفار، العَفُوُّ، البَر، المحسن، المنعم، الحليم، الكريم، الوهاب، الرزاق، الولي، الودود.

⁽١) المنان: المنعم المعطي.

⁽۲) رواه أحمد مد ۲/ ٦١ (١٢٦١١)، ٢١/ ١٩٢ (١٣٥٧٠)؛ وأبسب و داود ٢/ ٢٨٤ (١٤٩٠)؛ والترمذي٥/ ٥٥٠ (٣٥٤٤)؛ والنسائي ٣/ ٥٦ (١٣٠٠)؛ وابن ماجه ٢/ ١٢٦٨ (٣٨٥٨) وقال الترمذي: حديث غريب.

⁽٣) الأسهاء والصفات لأبي بكر البيهقي ٤٥٨ ١/ ٢٠٥، ط ١ - مكتبة السوادي بجدة.

⁽٤) الأسهاء والصفات ١/ ٢٠٨.

فهذه الأسهاء لها معانيها الخاصة، لكنها كلها متضمنة معنى الرحمة، ودالة على مدى شمولها وتنوع مداخلها وصورها.

وإن من أجَلّ العبادات وأعظمها شأنا في الإسلام: الذكر بهذه الاسهاء والصفات وتدبرُها، بنية التخلق بها والاقتباس من أنوارها والتزود بنصيب منها. فعن صفات الله تنبثق وتتدفق كل صفة كريمة رحيمة يمكن أن يتصف بها الإنسان. وعن رحمة الله، وعن اسميه (الرحمن الرحيم)، انبثقت فطرة الرحمة، التي فطر الله الناس عليها. فمن رحمة الله أنه فطر الناس على الرحمة والتراحم، وعلى حب الرحماء والأفعال والصفات الرحيمة. فهم يجبون الرحمة منهم، ويجبونها لهم. ويسعدون ويسرون بالرحمة والتراحم، ويشقون ويألمون لأضداد الرحمة. وأما أضداد الرحمة، من قسوة وغلظة وتعذيب وإذاية للناس، فهي صفات وتصرفات كسبية، تؤخذ من البيئة والتنشئة الاجتاعية، وليست من الفطرة التي خلقت على حب الرحمة والبر والإحسان.

وفي مقدمة التراحم الفطري الذي وهبه الله للناس، تراحم ذوي الأرحام. ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: أنا الرحن، خلقت الرحم وشققت لها اسما من السمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته، ومن بَتَها بَتَتُه. (١)

وعن أبي هريرة على عن النبي على الله الله: من الرحن، قال الله: من وصلته ومن قطعك قطعته. (٢) .

قال الحافظ ابن حجر: « ... وأصل الشجنة ـ بالكسر والضم والفتح ـ عروق الشجر المشتبكة، والشَّجَن بالتحريك واحد الشجون، وهي طرق الأودية، ومنه قولهم: «الحديث ذو شجون»، أيْ يدخل بعضه في بعض . وقوله: «من الرحمن» أي

⁽۱) رواه أحمد ٣/ ٢١٣ (١٦٨٠)، ٢١٦ (١٦٨٦)؛ وأبسو داود ٢/ ٣٨٧-٣٨٨ (١٦٩١)؛ والترمدني ٤/ ٣١٥-٣٨٨ (١٦٩١)؛ والترمدني ٤/ ٣١٥-٣١٦ (١٩٠٧) من حديث عبد الرحمن بن عوف ١٤٠٠.

⁽٢) رواه البخاري ٨/ ٦ (٥٩٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

أُخذ اسمها من هذا الاسم ... والمعنى: أنها أثر من آثار الرحمة مشتبكة بها؛ فالقـاطع لها منقطع من رحمة الله» (١) .

الرحمة في القرآن والسنة :

ورود لفظ الرحمة ومشتقاته في القرآن والسنة، يبلغ مثات المرات. وقد قدمتُ من ذلك - في الصفحات السابقة - ما استدعاه بيان معاني الرحمة وأنواعها ومجالاتها، وأُوردُ فيها يلي نهاذج قليلة أخرى من النصوص القرآنية والحديثية، من مختلف مجالات الرحمة وأنواعها، ليظهر لنا من هذه وتلك أن خُلُق الرحمة أصل كبير من أصول الدين ومقصد عام من مقاصد شريعته.

أولا: من القرآن الكريم:

١- الكتب المنزلة كلها رحمة:

﴿ وَيَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَ ثَكُم مَّوْعِظَةٌ مِن رَيِّكُمْ وَشِفَآهٌ لِمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَهُلَا اللَّهُ وَهِدُى وَرَحْمَةٌ لِلَمُؤْمِنِينَ ﴿ وَهُدَى وَرَحْمَةٌ لِللَّهُ وَمِنْ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللْمُلِمُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللْمُ اللَّهُ الللللْمُ اللللْمُ اللَّلْمُ اللللْمُ اللللْمُ الللْمُ الللْمُ اللَّلْمُ الللْمُ اللَّلْمُ اللللْمُ الللللْمُ اللللْمُ اللللْمُ الللْمُ اللَّلْمُ اللْمُ اللْمُ اللَّلِمُ الللْمُ الللْمُ الللِمُ

[يونس:٧٥، ٨٥]

﴿ قُلْ إِنَّمَا ۚ أَتَيْعُ مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ مِن زَيِّ ۚ هَنذَا بَصَ آبِرُ مِن زَيِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمُةُ لِقَوْمِ
 يُؤْمِنُونَ ﴿ وَإِذَا قُرِعَ ٱلْقُرْمَانُ فَأَسْتَمِعُواْ لَهُ, وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[الأعراف:٢٠٣، ٢٠٤]

- ﴿ وَلَقَدْ جِنْنَهُم بِكِنَكِ فَصَّلْنَهُ عَلَى عِلْدِهُ دَى وَرَحْتَ لَقَوْمِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٥].
 - ﴿ فَقَدْ جَاءً كُم بَيِّنَةُ مِن زَّيِكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [الأنعام:١٥٧].
- ﴿ ثُمَّةَ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِنْبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيَّ أَخْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّلِ شَيْءٍ وَهُدَى

⁽١) فتح الباري لابن حجر ١٧/ ١١٥.

وَرَحْمَةُ لَقَلَّهُم بِلِقَآءِرَتِهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام:١٥٤].

- ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِنَةِ مِن زَيِّهِ. وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْـهُ وَمِن قَبْلِهِ. كِنَنْبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْـمَةً ﴾ [هود: ١٧].
- ٢ وفي نظام الزوجية والقرابة الذي جاءت به الفطرة والشريعة رحمة ومودة وسكينة، كما في هذه الآيات:
- ﴿ وَمِنْ ءَايَدَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَنَجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمُ مُودَةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَنتِ لِقَوْمِ يَنْفَكُرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].
- ﴿ ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْنَادَىٰ رَبَّهُۥ أَنِي مَسَّنِي ٱلطُّرُ وَأَنتَ أَرْكُمُ ٱلرَّحِمِينَ ﴿ فَأَسْتَجَبَنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ، مِن ضُرِّرٌ وَ اَنَيْنَاهُ أَهْلَهُ، وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْمُهُ فَكَدُهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْمُهِ فَكَالَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَندِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٥].
 - ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ وَأَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ ﴾ [ص: ٤٣]

[البقرة: ۱۷۸، ۱۷۹]

٤- وفي كل ما شرعه الله وكلفنا به رحمة وطريق إلى الرحمة ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَاللّٰمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَاللّٰمُؤْمِنُونَ عَنِ اللّٰمَاكُمُ وَيُقِيمُونَ وَاللّٰمُؤْمِنَتُ بَشْمُهُمْ اللّٰهُ وَيُقْلِمُونَ اللّٰمَاكُونَ وَيُعْلِمُونَ اللّٰهَ عَزِينًا لَا اللّٰهُ عَزِينًا لَا اللّٰهُ وَرَسُولُهُمْ أَوْلَئَتِكَ سَيَرْ مَهُهُمُ اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ عَزِينًا لَا اللّٰهُ عَزِينًا لَا اللّٰهُ وَرَسُولُهُمْ أَوْلَئِيكَ سَيَرْ مَهُهُمُ اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ عَزِينًا لَا اللّٰهُ عَلَيْ اللّٰهُ وَرَسُولُهُمْ أَوْلِيمُ لَا اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ وَرَسُولُهُمْ أَوْلِيمُ لَا اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَرَبُونَ اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلَيْهُ اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلَيْهُ اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلَيْهُ عَلَى اللّٰهُ عَلْمُ اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلَا اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلْمُ اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلَى اللّٰ اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَ

حَكِيتُ ﴾[التوبة:٧١].

- ٥ ورحمة الله في بعض أنواعها ومراتبها، لا ينالها إلا من سعى إليها وتأهل لنيلها، كما تفيد ذلك آيات كثيرة منها:
- ﴿ يَتَأَتُّهَا اَلنَّاسُ فَذَ جَآءَكُم بُرْهَنَ فِن رَّتِكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا ثُمِينًا ﴿ فَأَمَّا الَّذِبَ عَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ مَ فَسَكُيدُ خِلْهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٥، ١٧٤].
- ﴿ الَّمَ إِنَّ اللَّهُ الْكِنْبِ الْحَكِيمِ ﴿ هُدًى وَرَحْمَةُ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان:١-٣].
- ﴿ وَلَا نُفَيِّدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَنِهِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].
- ﴿ وَبَشِّرِ الْصَّابِرِينَ ﴿ الَّذِينَ إِذَا آَصَنَبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓ الْإِنَّالِيَّةِ وَإِنَّا إَلَيْهِ وَإِنَّا إَلَيْهِ وَإِنَّا إَلَيْهِ وَالْتَهِ فَ الْوَلِيَةِ فَى الْمَالِقَ اللَّهِ مَلَى الْمُلْقَالِقَ الْمَلْقِينَ اللَّهِ وَالْمَالِقَ الْمُلْقِينَ اللَّهِ مَا اللَّهِ وَاللَّهِ وَالْمَلْمَ الْمُلْهَالِمُنْ اللَّهِ اللَّهِ وَاللَّهِ وَالْمَلْمُ الْمُلْعَلَى اللَّهِ مَلَى اللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ مَلَى اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهُ وَاللَّهِ وَاللَّهُ وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهِ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْعَلَى اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ الْمُلْلِمُ الْلَالِيَّ الْمُلْلِيَّةُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُلْلِمُ اللَّلِي الْمُلْلِمُ اللَّهُ اللَّلْمُ الْمُلْلِمُ الْمُلْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّلْمُ اللَّهُ الْمُلْلِمُ اللْمُلْلِي اللَّلِي اللْلِلْمُ اللْمُلْمُ اللَّلِي اللَّهُ الْمُلْمُ اللَّلِي الْمُلْلِلْ

ثانيا: من السنة النبوية:

ا – عن أبى هريرة على قال سمعت رسول الله يلي يقول: "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم يبأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار "(1). وفي رواية لمسلم: "إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين

⁽١) رواه البخاري ٨/ ٩٩ (٦٤٦٩).

رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة »^(١).

٢- عن عبد الله بن عمرو عن قال، قال رسول الله عن «الراحمون يرحمهم الرحن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (٢).

٣- عَنْ جَرِير بْنِ عَبْدِ اللهِ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرحم اللهُ من لا يرحم اللهُ من لا يرحم الناس» (٣).

٤- عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (٤).

وقد خصص الإمام البخاري عدة أبواب من صحيحه للأحاديث الواردة في الرحمة، ومنها الباب السابع والعشرون من كتاب الأدب، وهو (باب رَحْمَةِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ). وفيه أورد – مما أورده – حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "بينها رجل يمشى بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بنرا فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له». قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرًا ؟! فقال: "في كل ذات كبد رطبة أجر» (٥).

⁽١) صحيح مسلم ٢/ ٢١٠٨ (٢٧٥٢)/ (١٩) من حديث أبي هريرة الله.

⁽٢) رواه أحمد ١١/ ٣٣ (٦٤٩٤)؛ وأبو داود ٥/ ٣٣٠ (٤٩٠٢)؛ والترمذي ٤/ ٣٢٣–٣٢٤ (١٩٢٤) وقال: حديث حسن صحيح.

⁽٣) رواه البخاري ٩/ ١١٥ (٧٣٧٦)؛ ومسلم ٤/ ١٠٨٩ (٢٣١٩).

⁽٤) رواه البخاري ٨/ ١٠ (٦٠١١)؛ ومسلم ٤/ ٢٩٩٩-٥٠٠٠ (٢٥٨٦)/ (٦٦).

⁽٥) رواه البخاري ٣/ ١٣٢–١٣٣ (٢٤٦٦)، ٨/ ٩-١١ (٦٠٠٩)؛ ومسلم ٤/ ١٧٦١ (٢٢٤٤).

وعن أبى هريرة عن النبي ﷺ: «أن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها - أي خفها- فغفر لها» (١١).

قال أبو الحسن بن بطَّال في تعليق عام له على أحاديث الباب من صحيح البخاري: «في هذه الأحاديث الحضُّ على استعال الرحمة للخَلْق كلهم، كافرهم ومؤمنِهم، ولجميع البهائم، والرفقُ بها. وأن ذلك عما يغفر الله به الذنوب ويكفِّر به الخطايا، فينبغى لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعمّلها في أبناء جنسه وفي كل حيوان، فلم يخلقه الله عبثًا. وكلُّ أحد مسئول عما استُرعِيه ومُلِّكه من إنسان أو بهيمة لا تقدر على النطق وتبيين ما بها من الضر. وكذلك ينبغى أن يرحم كل بهيمة وإن كانت في غير ملكه، ألا ترى أن الذي سقى الكلب الذي وجده بالفلاة، لم يكن له مِلكًا، فغفر الله له بتكلفه النزولَ في البيْر وإخراجه الماء في خفه وسقيه إياه. وكذلك كل ما في معنى السقى من الإطعام، ألا ترى قوله عليه: «ما من مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة» (٢). وبما يدخل في معنى سقى البهائم إطعامُها والتخفيف عنها في أحمالها وتكليفُها ما تطيق حمله، فذلك من رحمتها والإحسانِ إليها . ومن ذلك ترك التعدي في ضربها وأذاها وتسخيرها في الليل وفي غير أوقات السخرة، وقد بُهينا في العبيد أن نكلفهم الخدمة في الليل، فإن لهم الليل ولمواليهم النهار، والدواب وجميع البهائم داخلون في هذا المعنى "(٣) وقال عز الدين بن عبد السلام في بيان كيف يحقق للعبد التحلي والتخلق بصفتَى الرأفة والرحمة - من صفات الله -: «والتخلق بها، برحمة كل من قدرتَ على رحمته بأنواع ما تقدر

(١) صحيح مسلم.

⁽۲) رواه البخاري ۸/ ۱۰ (۲۰۱۲)؛ ومسلم ۳/ ۱۱۸۹ (۱۵۵۳)/ (۱۲) من حديث أنس بن مالك ش.

⁽٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/ ٢١٩، ٢٢٠، ط. مكتبة الرشد بالرياض.

عليه من الرأفة والرحمة، حتى تنتهي رحمتك إلى الذباب والذر...» (١).

نيُ الرحمة وشريعة الرحمة:

إذا كانت الرحمة صفة عظيمة من صفات الله العُلَى، واسبًا جليلا من أسبائه الحسنى، وهي فطرته التي فطر الناس عليها، فمن الضروري ـ ومن الطبيعي ـ أن تكون رسالاته وشرائعه لخلقه على هذا المنوال . فشريعته تعالى لخلقه، مطابقة ومكملة لفطرته التي فطرهم عليها. «فالتشريع الديني أثر من آثار رحمة الله للعباد ومنهل من مناهل اللطف بهم، حيث جعل بينهم وبين المضار حصونا منيعة، وساق إليهم المنافع كما يساق الماء إلى الأرض الجُرُز ... »(٢) .

وقد بين الله تعالى أن البعثة المحمدية - ومثلها بعثة كافة الرسل - إنها هي رحمة ولأجل الرحمة:

- ﴿ وَمَا آرْسَلْنَكُ إِلَّا رَحْمَةُ لِلْعَلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]،
- ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِي وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنَّ قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَكَ مُ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
 وَتُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [التوبة: ٢١].
 - وفي الحديث: «إنها أنا رحمة مهداة» (٣).
- وقيل لرسول الله ﷺ ادعُ الله على المشركين والعنهم، فقال: «إني إنها بُعِثْتُ

⁽١) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال للعز بن عبد السلام ص ٤٠ ط. بيت الأفكار الدولية.

⁽٢) العبارة للشيخ محمد العزيز جعيط، من مقاله «المقاصد الشرعية وأسرار التشريع»، المجلة الزيتونية، المجلد الأول - العدد الثالث - رجب ١٣٥٥/ سبتمبر١٩٣٦.

⁽٣) رواه الحاكم في المستدرك ١/ ٣٥؛ والبزار في مسنده ١٢٢/١٦ (٩٢٠٥)؛ والطبراني في الأوسط ١٨٥ (٣٠٠٥)؛ وفي الصغير (الروض الداني ١/ ١٦٨ رقم ٢٦٤) من حديث أبي هريرة ، وقال الحاكم: صحيح على شرطهما . ووافقه الذهبي.

رحمة، ولم أُبعَثُ لعّانا» (١).

وفي الدعاء المأثور: «اللهم إني أسألك وأتوجّه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة» (٢).

ومن أجمع الكليات وأصدقها في وصف الشريعة الإسلامية، كلمة ابن قيم الجوزية، التي يقول فيها: «فإن الشريعة ...عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها (٣).

وهذه قبسات تطبيقية من شمائل «النبي الرحمة المهداة»، تظهر لنا مدى تخلق رسول الله على بخلق الرحمة في عامة أفعاله وأقواله.

- ﴿ لَقَدُ جَآءَ كُمْ رَسُوكُ قِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيرٌ عَلَيْهِ مَا عَنِيثُمْ حَرِيثُ
 عَلَيْكُمُ مِ إِلْمُوْمِنِينَ رَهُ وَثُلَ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].
 - ﴿ ٱلنِّيُّ أُولَٰ يِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِمٍمٌ ﴾ [الأحزاب:٦].
- ﴿ فَيِمَا رَحْمَةِ مِّنَ أَلِّهِ لِنتَ لَهُمُ وَلَوْ كُنتَ فَظًا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَاَنْفَشُواْ مِنْ حَوْلِكُ فَأَعْفُ عَنْهُمْ
 وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرُهُمْ فِٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
- حدیث أبي مسعود الأنصاري ﴿ قَالَ، قال رجل یا رسول الله، لا أكاد
 أدرك الصلاة مما یُطول بنا فلان، فها رأیت النبی ﷺ في موعظة أشد غضبا من يومئذ

⁽١) رواه مسلم ٢/٤٠٠٠-٢٠٠٧ (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة فكا.

⁽۲) رواه أحمد ۲۸ / ۶۷۸ (۱۷۲٤)؛ والترمذي ٥/ ٥٦٩ (٣٥٧٨)؛ والنسائي في الكبرى ٩/ ٢٤٤ (١٠٤١٩)؛ وابن ماجه ١/ ٤٤١ (١٣٨٥) من حديث عثمان بن حنيف ، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

⁽٣) إعلام الموقعين لابن القيم ٣/ ٣، ط. دار الجيل، بيروت.

فقال: « أيها الناس، إنكم منفرون، فمن صلى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة » (١)

- وحديث أنس بن مالك أن النبي على قال: "إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأنجور في صلاتي عما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه» (٢).
- حديث مالك بن الحويرث قق قال أتينا رسول الله على ونحن شَبَبَة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة . وكان رسول الله على رحيها رقيقا، فظن أنّا قد اشتقنا أهلنا، فسألّنا عن من تركنا من أهلنا، فأخبرناه فقال: «ارجعوا إلى أهليكم فأتيموا فيهم وعلموهم ومروهم ... "(").

الرحمة ومسألة القتل الرحيم ؟ :

من القضايا الطبية ذاتِ الصلة بخُلُق الرحمة، قضية ما يسمى بالقتل الرحيم، وهو قيام الطبيب بالإجهاز على حياة المريض المعذب الميتوس منه طبيا، وذلك بطلب من المريض نفسه، أو بطلب من ذويه، إذا كان هو في غيبوبة تامة متواصلة. ويتم هذا القتل «الرحيم»، بداعي الرحمة والشفقة وإنهاء المعاناة.

وهذه القضية قد أخذت حظها من البحث الفقهي، وأجمع فقهاء الإسلام على تحريم هذا الفعل وأنه قتل للنفس لا يجوز بحال. ولذلك لا حاجة بي للاستطراد في هذا الاتجاه، كما أن ذلك ليس من طبيعة هذا البحث ولا هو من غرضه. ولكني أعرج فقط على الجانب الخلقي والمقاصدي، الذي تسوَّغُ به هذه القضية، على أساس أن فيها رحمة للمريض وتخليصا له من عذابه الذي لا فائدة ترجى من وراء تحمله.

⁽١) رواه البخاري ١/ ٣٠ (٩٠)؛ ومسلم ١/ ٣٤٠ (٤٦٦).

⁽٢) رواه البخاري ١/١٤٣ (٢٠٩)؛ ومسلم ١/٣٤٣ (٤٧٠)/ (١٩٢).

⁽٣) رواه البخاري ١/ ١٢٨ (٦٢٨)، ١٣٨ (٦٣١)؛ ومسلم ١/ ٢٥٥ (١٧٤) (٢٩٢).

والحقيقة أن هذه نظرة قصيرة وقاصرة...

فهي أولا تفتح باب المجازفة والاستهانة بالأرواح البشرية وحرمتها، خاصة وأن احتمالات الشفاء - مهما تضاءلت - تظل قائمة.

ثم إنه ليس هناك ألم يمكن أن يكون وزنه أرجحَ من حفظ الروح البشرية. ولو جاز تقديم رفع الألم على حفظ النفس، لجاز الانتحار والمساعدة عليه، لمن اشتدت بهم الآلام، وسدت في وجوههم الآمال.

وقد ذكرتُ من قبل أن الرحمة في العقيدة الإسلامية تشمل رحمة الآخرة وما يفضي إليها من ثواب وتوبة ومغفرة. وقد صح في الأحاديث النبوية أن الآلام فيها محو السيئات ورفع الدرجات، تخفيفا من ربكم ورحمة. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه» (١).

وقال أيضا: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة» (٢). وهذه رحمة أيُّ رحمة.

وكل هذا من أجل أن يصبر المصاب ويتَقَوَّى على محنته، ويتشبث بأمله، ويحافظ على حياته.

⁽١) الحديث متفق عليه .

⁽٢) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

فهرس الموضوعات

الصفحت	الموضوع
٧	معنى الخُلُق والأخلاق
۲۳	الأخلاق والتشريع في القرآن الكريم
۲۹	المنظومة الأخلاقية والمنظومة التشريعية في الإسلام
٤٣	الأخلاق وأصول التشريع
	الأخلاق والمقاصد
٦٥	الأخلاق في المجال الطبي
